تحليل الرسائل الثلاث :

١ - الأولى : كتاب بيان إعجاز القرآن تأليف أبى سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابى . . رواية أبى الحسن الفقيه السَّجزَى . وقد اعتمدنا فى نشرها على مخطوطة مصورة عن دار الكتب [١] مكتوبة بخط مغربى واضح به بعض الشكل . ولا يخلو من الأخطاء النحوية أحيانًا . وقد كتب على طرته :

كتاب بيان إعجاز القرآن

تأليف أبى سليمان حمد بن محمد إبراهيم الخطابى رضى الله عنه
رواية أبى الحسن على بن الحسن الفقيه السَّجزى رحمه الله

وعليه إجازة تفيد أنه رواية عن الشيخ أبى عبد الله محمد بن حيان الفهرى عن الشيخ عبد الله الحجرى عن الشيخ الفقيه أبى طاهر السِّلفى الأصبهانى عن الشيخ عبد الله محمد بن بركات النحوى عن الشيخ أبى القاسم سعد بن على الزَّنجانى عن أبى الحسن السجزى عن المؤلف . وكانت هذه الإجازة سنة ست وستين وخمسمائة .

وأثبت فى ختام النسخة أنه « تم الكتاب بحمد الله وعونه ، صلى الله على محمد وآله وسلم والحمد لله رب العالمين – أوائل عام ستة وألف عرفنا الله خيره ووقانا شره » وأثبت فى آخرها أيضًا أنها روجعت وقوبلت على النسخة الأصلية . وتقع المخطوطة فى ٢٣ ورقة . وكل صحيفة مسطرتها ٢١ سطرًا وبالسطرين ١٢ ، ١٤ كلمة .

طبعات الكتاب :

(ا) طبعة السيد عبد الله الصديق سنة ١٩٥٣ م – ١٣٧٢ هـ بمطبعة دار التأليف بالقاهرة – من القطع الصغير فى ١٢٥ صفحة .

(١) من نسخة خطية مغربية من المكتبة الصديقية بطنجة .

وهى عن الأصل الذى رجعنا إليه ، وقد راجعنا هذه الطبعة فتبين لنا بعض الملاحظات التى أبديناها فى مواضعها ، وأشرنا إليها فى الهوامش برمز «ا» .

ويلاحظ بصفة عامة أنه يتصرف أحيانًا فى العبارة بما لا يتطلبه السياق ، وربما لجأ إلى تأويل لا ضرورة له ، وقد اهتم فى هوامشه بشرح ما جاء فى الرسالة من الأحاديث والأخبار والروايات الدينية .

(ب) طبعة الدكتور عبد العليم عميد القسم العربى فى الجامعة الإسلامية بعلى كرَه (الهند) ــ مطبعة خليل شرف ببومباى سنة ١٣٧٢هـ ــ ١٩٥٣م ونشر القسم العربى بجامعة على كَره .

ورجع المحقق فى هذه النشرة إلى نسخة ليدن التى أشرنا إليها ، والتى أشار إليها بروكلمان ، ولهذا كان لهذه الطبعة أهميتها فى طبعتنا الثانية للرسالة ، وبمراجعتها أمكن إعادة قراءة بعض ما التبس من عبارات النسخة الأولى ، وتقويم بعض الألفاظ بحيث تكون أكثر ملاءمة ، غير أننا مع ذلك لاحظنا وجود كثير من الخطأ والتصحيف فى هذه الطبعة مما يقلل من شأنها .

فكرة الرسالة ومنهجها :

فى هذه الرسالة يقرر الخطابى أن الناس قديمًا وحديثًا ذهبوا فى الموضوع كل مذهب من القول ولم يصدروا عن رِىّ . ويناقش فكرة الصرفة ، وفكرة تضمن القرآن للأخبار المستقبلة ، ولا يرتضيها شرحًا لأسرار الإعجاز ، ثم ينتقل إلى موضوع البلاغة ، ويعيب على القائلين بها اعتمادهم على التقليد وعدم تحقيقهم وقصور كلامهم عن الإقناع . ويعالج هو الموضوع على طريقته فيذكر الأقسام الثلاثة للكلام المحمود ، ويقرر أن بلاغات القرآن قد أخذت من كل قسم من هذه حصة ، ومن كل نوع شعبة ، فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفتى الضخامة والعذوبة ، وهما على الانفراد فى نعوتهما كالمتضادين . لذلك كان اجتماعهما فى نظم القرآن فضيلة خص

بها ، يسرها اللطيف الخبير لتكون آية بينة لنبيه . وإنما تعذر على البشر الإتيان بمثله ؛ لأن علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة وأوضاعها ، ولا تدرك أفهامهم جميع معانى الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ ، ولا تكمل معرفتهم لاستيفاء جميع النظوم التى بها ائتلافها وارتباطها بعضها ببعض .

وإنما صار القرآن معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ فى أحسن نظوم التأليف متضمنا أصح المعانى من توحيد وتحليل وتحريم . . . إلخ . ومعلوم أن الإتيان بمثل هذه الأمور والجمع بين أشتاتها حتى تنتظم وتتسق ، أمر تعجز عنه قوى البشر .

وعمود البلاغة التى تجتمع لها هذه الصفات هو وضع كل نوع من الألفاظ التى تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به . ومن هنا كاع القوم وجبنوا عن معارضة القرآن لما قد كان يؤودهم ويتصعدهم منه .

ويفند الخطابى بعض ما أورده المعترضون من شُبَه ضد أسلوب القرآن.

ومن الطرف فى رسالة الخطابى ما أورده من تحليل بعض النصوص تحليلا فنيًّا جميلا ، يكشف فيه عن ذوق وبصر بمواطن الجمال فى الكلام ، وقد أثبت فى آخر رسالته وجهًا آخر للإعجاز ذهب عنه الناس – كما يقول – وذلك صنيع القرآن بالقلوب ، وتأثيره فى النفوس . ويلاحظ أن هذه هى الفكرة التى دار حولها بحث عبد القاهر الجرجانى فى أسرار البلاغة إذ اعتبر مصدر البلاغة فى الكلام تأثيره فى النفوس [1] .

٢ – الرسالة الثانية :

« النكت فى إعجاز القرآن » لأبى الحسن على بن عيسى الرمانى . وقد اعتمدنا فى نشرها على ثلاث مخطوطات هى :

١ – مخطوطة بمكتبة بغدادلى وهى بالآستانة ، ومنها نسخة مصورة محفوظة بمكتبة بلدية الإسكندرية عن فيلم بمعهد المخطوطات التابع لجامعة

(١) شرح هذه الفكرة وناقشهام . خلف الله فى كتابه (من الوجهة النفسية فى دراسة الأدب ونقده) الفصل الرابع ، القاهرة ١٩٤٧ .

الدول العربية . وكتب على طرتها رقم ٦٢ وعنوانه : « كتاب النكت فى إعجاز القرآن ، تصنيف الشيخ الإمام أبى الحسن على بن عيسى الرمانى رحمه الله تعالى المتوفى سنة ٣٨٤ هـ » ، وذيلت بختام ذكر فيه تاريخ النسخ سنة ٦٥٢ هـ بقلم محمد عبد العزيز الأنصارى ، والمخطوطة بخط نفيس ، وأوراقها ٢٢ ورقة ومسطرتها ١٧ سطرًا فى الصحيفة ويحوى السطر من ١٠ - ١٢ كلمة . ويوجد على بعض الصفحات تصحيحات قليلة بالهامش ، وببعضها أختام الوقف واسم الخزانة وقد جعلنا هذه النسخة الأصل وراجعنا عليه النسختين التاليتين .

(ب) وأما الثانية فهى النسخة الأولى بالخزانة التيمورية بدار الكتب تحت رقم ٢٩٨ تفسير خط . وقد جاء فى طرتها بخط أحمد بن إسماعيل ابن محمد تيمور ما يلى :

« مما استنسخناه ونحن فى بيت المقدس من المكتبة البديرية » ، وجاء فى سطر آخر : « ويظهر أنه قد سقط من هذه النسخة الباب العاشر وهو حسن البيان ص ٤٩ » ، وذيلت بختام جاء فيه : « تمت هذه الرسالة بقلم الفقير العبد الضعيف محمد أمين بن الشيخ عمر الدنف الأنصارى خادم الحرم الشريف والمسجد والأقصى المنيف غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين آمين . ١٥ ربيع الثانى سنة ١٣١٨ هـ » . والمخطوطة بخط نسخ واضح ، وقد أشرنا إليها بالرمز « ت » .

(جـ) أما الثالثة فهى النسخة الثانية بالخزانة التيمورية رقم ٥٣٤ تفسير خط بخط حديث سنة ٣١٨ « هـ أيضاً بقلم صاحب النسخة الثانية ، وفى نفس الحجم وقد أشرنا إليها بالرمز « $ت_٢$ » .

والنسختان التيموريتان « $ت_١$ » ، « $ت_٢$ » عن أصل واحد هو المحفوظ بالمكتبة البديرية بالقدس ، وهى نسخة برواية القاضى أبى الحسن بن الحسين المتوفى سنة ٤٩٢ هـ [١] .

(١) هو قاضى فقيه أصله من الموصل ثم جاء إلى مصر ودرس الفقه على مذهب الشافعى ...

تحليل الرسالة :

تأخذ الرسالة شكل جواب عن سؤال وجه للمؤلف عن « ذكر النكت في إعجاز القرآن دون التطويل بالحجاج » وهذاالجواب يتلخص في أن وجوه الإعجاز تظهر من سبع جهات : ترك المعارضة مع توافر الدواعي وشدة الحاجة ، والتحدي للكافة ، والصرفة ، والبلاغة والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة ، ونقض العادة ، وقياسه بكل معجز .

ويوجه المؤلف همه من هذه الجهات السبع إلى البلاغة فيذكر أنها على ثلاث طبقات : منها ما هو في أعلى طبقة ، ومنها ما هو في أدنى طبقة ، ومنها ما هو في الوسائط بين أعلى طبقة وأدنى طبقة . وبعد أن يشرح المؤلف كل واحدة من هذه يحصر البلاغة في عشرة أقسام* أو أبواب هي : الإيجاز والتشبيه ، والاستعارة ، والتلاؤم ، والفواصل ، والتجانس ، والتصريف ، والتضمين ، والمبالغة ، وحسن البيان .

ثم يستمر فيفسر هذه بابًا بابًا بتعريف الموضوع ثم بتقسيمه إلى نواحيه مستشهدًا لكل ناحية بالآية تلو الآية من القرآن ، وندر أن يستشهد ببيت من الشعر أو قول مأثور من النثر إلا ما استلزمته الموازنة بين الآية وما في معناها من كلام العرب .

وبعد أن انتهى من مقصوده — وهو التعريف بأبواب البلاغة العشرة خصص بضع صفحات في آخر كتابه للتعريف بالوجوه الأخرى الستة التي أشار إليها في أول الكتاب ، والتي تؤلف مع البلاغة وجوه الإعجاز في نظره

= سمع عبد الرحمن بن النحاس وأبا سعيد الماليني وانتهى إليه علو الإسناد بمصر، ولي القضاء يوماً واستعفى ثم اعتزل الناس ، وكان يوصف بدين وعبادة ، وخرج له أبو نصر الشيرازي عشرين جزءاً وسماها ، الخلعيات ، ومن تصانيفه المغني في الفقه في أربعة أجزاء . ولد سنة ٤٠٥ هـ وعمر طويلا ثم توفي وعمره ثمان وثمانون عاماً سنة ٤٩٢ هـ ودفن بالقرافة بمصر (راجع ابن خلكان ط محيي الدين ٧/٢ ، ، وابن العماد ٣ / ٣٩٨) .

* أثبتنا في فصل التعليقات (فصل ٤ قسم ٣) نبذة عن تطور مصطلحات البلاغة إلى القرن الرابع الهجري الذي ظهر فيه الرماني والخطابي .

وأسلوب المؤلف فى معالجة موضوعه علمى منطقى يحتاج فى كثير من المواضع إلى الجهد فى فهمه وتتبعه ، ويغلب عليه الطابع الكلامى ، والمنزع الاعتزالى فى تأويل القرآن .

٣ ـ الرسالة الثالثة :

« الرسالة الشافية فى الإعجاز لعبد القاهر الجرجانى » .

وقد اعتمدنا فى نشرها على مخطوطة مصورة عن الأصل المحفوظ ضمن مجموعة بدار الكتب ، وتبدأ الصفحة الأولى فى الرسالة برقم ١٩٠ فى المجموعة وتنتهى برقم ٢٠٨ .

وهى مكتوبة بخط نسخ واضح مشكول ، به كثير من الأخطاء الإملائية وبعض أخطاء الشكل . وعلى الصفحة الأولى بخط الناسخ هذه العبارة : « هذه الرسالة خارجة من كتابة الموسوم بدلائل الإعجاز » . وبمراجعة كتاب الدلائل المطبوع تبيّن أن هذه الرسالة ليست خارجة منه نصًّا . والرسالة تحتوى على ١٨ ورقة وبضعة أسطر ، من القطع المتوسط . مسطرتها ١٨ سطرًا والسطر يحوى بين ١٢ ـ ١٤ كلمة ، بدون تاريخ .

وببعض الصفحات أختام وقف .

تحليل الرسالة :

تناول عبد القاهر فى هذه الرسالة بعض نواح من فكرة الإعجاز ، أخصها إثبات الإعجاز عن طريق عجز العرب عن معارضة القرآن ، وفى هذا يقرر أن العبرة بعجز العرب المعاصرين للرسول عليه السلام دون المتأخرين من الخطباء والبلغاء عن زمانه ، وعلى هذا الأصل ينتقل عبد القاهر إلى النظر فى دلائل أحوال العرب وأحوالهم حين تلى عليهم القرآن وتحدوا إليه .

أما الأحوال فدلالتها من حيث كان المتعارف من عادات الناس ألا يسلموا لخصومهم الفضيلة وهم يجدون سبيلا إلى دفعها ، وعبد القاهر يطيل

فى هذه النقطة مستشهدًا بالمألوف فى أحوال الاجتماع ، والمعروف فى أحوال الشعراءِ .

وأما الأَقوال فكثيرة يروى منها عبد القاهر حديث ابن المغيرة ، وحديث عتبة بن ربيعة . وحديث أَبى ذر . وينتهى من هذا إلى القول بأَنه على أساس لالة الأَحوال والأَقوال وجب القطع بأَن القرآن معجز ، ناقض للعادة وأنه فى معنى قلب العصا حية وإحياءِ الموتى فى ظهور الحجة على الخلق كافة .

ويتعرض عبد القاهر فى سياق الرسالة لنواح فى الميدان الأَدبى يُبين فيها تفاوت الشعراء فى أَقدارهم واشتمال كلامهم على البليغ وغير البليغ ، ثم يناقش فى نهاية رسالته فكرة الصرفة ويفند رأْى القائلين بها . ويلحق بالرسالة فصولا قصيرة مستقلة يزيد فيها بعض جوانب الموضوع شرحًا ويجيب عن بعض اعتراضات .

وظاهر من نظام هذه الرسالة أَن عبد القاهر كتبها ليثبت حقيقة الإِعجاز لا ليبين أَسراره . أَما تفصيل القول فى أَسرار الإِعجاز من جهة بلاغة الكلام ونظمه ، فقد فصل عبد القاهر القول فيه فى كتابه الكبير المستقل الذى سماه « دلائل الإِعجاز » وهو كتاب مطبوع معروف . وقد أَثبتنا منه فى نهاية التعليقات * القدر الضرورى لبيان وجهة نظر عبد القاهر فى الإِعجاز البلاغى لتتم الفائدة وتكمل الفكرة .

الاسكندرية فى ١٣٧٦هـ / ١٩٥٦م

محمد خلف الله — **محمد زغلول سلام**

---

* راجع الفصل الأخير قسم جـ .

بيان إعجاز القرآن

لأبى سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابى
(٣١٩ هـ - ٣٨٨ هـ)



بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على محمد وآله وسلم تسليمًا

القول فى بيان إعجاز القرآن

قال أبو سليمان [1] : قد أكثر الناس الكلام فى هذا الباب قديمًا وحديثًا ، وذهبوا فيه كل مذهب من القول ، وما وجدناهم بعدُ صدروا عن رِى ، وذلك لتعذر معرفة وجه الإعجاز فى القرآن ، ومعرفة الأَمر فى الوقوف على كيفيته . فأَما أَن يكون قد يقبت فى النفوس نقبة [2] بكونه معجزًا للخلق ممتنعًا عليهم الإتيانُ [3] بمثله على حال فلا موضع لها ، والأَمر فى ذلك أَبين من أَن نحتاج إلى أَن ندل عليه بأَكثر من الوجود القائم المستمر على وجه الدهر ، من لدن عصر نزوله إلى الزمان الراهن الذى نحن فيه . وذلك أَن النبى صلى الله عليه وسلم قد تحدى العرب قاطبة بأَن يأْتوا بسورة من مثله فعجزوا عنه وانقطعوا دونه . وقد بقى صلى الله عليه وسلم يطالبهم به مدة عشرين سنة ، مظهرًا لهم النكير، زاريًا على أَديانهم ، مسفهًا آراءهم وأَحلامهم ، حتى نابذوه وناصبوه الحرب فهلكت فيه النفوس ، وأُريقت المهج ، وقُطعت الأَرحام ، وذهبت الأَموال .

ولو كان ذلك فى وسعهم وتحت أَقدارهم لم يتكلفوا هذه الأُمور الخطيرة .

---

(١) فى «ب» : قال أبو سليمان حمد بن إبراهيم الخطابى رضى الله عنه .

(٢) فى «ب» : نقت . . نقية — ويذكر أنها فى الأصل لقيت لقية ، أثبتناه أكثر القراءات تمشياً مع النص ، وربما كانت الكلمة فى الأصل تصحيفاً لألقيت إلقاء .

(٣) فى «ب» : ممتنعاً بالإتيان بمثله .

ولم يركبوا تلك الفواقر المبيرة ، ولم يكونوا تركوا السهل الدمث من القول إلى الحزن الوعر من الفعل ، وهذا ما لا يفعله عاقل ولا يختاره ذولب . وقد كان قومه قريش خاصة موصوفين برزانة الأَحلام ، ووفارة العقول والأَلباب . وقد كان فيهم الخطباء المصاقع والشعراء المفلقون . وقد وصفهم الله تعالى فى كتابه بالجدل واللدد فقال سبحانه :﴿...ما ضربُوه لك إلاَّ جدلاً بل هُمْ قومٌ خَصِمُون﴾[1] وقال سبحانه : ﴿ وتُنْذِرَ بِه قوما لُدًّا ﴾ [2] . فكيف كان يجوز – على قول العرب ومجرى العادة مع وقوع الحاجة ولزوم الضرورة – أَن يغفلوه ولا يهتبلوا الفرصة فيه ، وأَن يضربوا عنه صفحًا ، ولا يحوزوا الفلج والظفر فيه لولا عدم القدرة عليه والعجز المانع منه . ومعلوم أَن رجلا عاقلا لو عطش عطشًا شديدا خاف منه الهلاك على نفسه وبحضرته ماء معرض للشرب فلم يشربه حتى هلك عطشًا [لحكمنا [3]] أَنه عاجز عن شربه غير قادر عليه . وهذا بيِّن واضح لا يُشكل على عاقل .

قلت : وهذا – من وجوه ما قيل فيه – أَبينها دلالة وأَيسرها مؤونة . وهو مقنع لمن تنازعه نفسه مطالعة كيفية وجه الإِعجاز فيه .

وذهب قوم إلى أَن العلة فى إعجازه الصرفة [4] ، أَى صرف الهمم عن المعارضة ، وإن كانت مقدورًا عليها ، وغير معجزة عنها ؛ إلا أَن العائق من حيث كان أَمرًا خارجًا عن مجارى العادات صار كسائر المعجزات . فقالوا : ولو كان الله عز وجل بعث نبيًّا فى زمان النبوات ، وجعل معجزته فى تحريك

---

(١) سنجرى فى خلال هذا الكتاب على ذكر اسم السورة متبوعاً برقمها ثم رقم الآية (الزخرف ٤٢/ ٥٨) . وتمام الآية : (وقالوا أآلهتنا خيرٌ أم هو ما ضربوه لك إلاّ جدلاً ، بل هم قوم خصمون) .

(٢) [مريم ١٩ / ٩٧] . (٣) أضفنا هنا كلمة (لحكمنا) ليتم الكلام .

(٤) فى «ب» : وذهب قوم إلى الإعجاز فيه الصرفة .

يده أو مدرجله فى وقت قعوده بين ظهرانى قومه ، ثم قيل له : ما آيتك ؟ فقال آيتى أن أحرك يدى أو أمد رجلى ، ولا يمكن أحدًا منكم أن يفعل مثل فعلى ، والقوم أصحاء الأبدان لا آفة بشىء من جوارحهم ، فحرك يده أو مد رجله ، فراموا أن يفعلوا مثل فعله فلم يقدروا عليه ، كان ذلك آية دالة على صدقه . وليس ينظر فى المعجزة إلى عظم حجم ما يأتى به النبى ولا إلى فخامة منظره ، وإنما تعتبر صحتها بأن تكون أمرًا خارجًا عن مجارى العادات ناقضاً لها ، فمهما كانت بهذا الوصف كانت آية دالة على صدق من جاء بها ، وهذا أيضًا وجه قريب ، إلاأن دلالة الآية تشهد بخلافه وهى قوله سبحانه : ﴿ قُل لَئِن اجتَمعتِ الإنْسُ والجنُّ عَلَى أَنْ يأتُوا بِمِثْلِ هذا القُرآنِ لا يأْتُون بمثْلِهِ ولوْ كانَ بعضُهُمْ لبعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[1] ، فأشار فى ذلك إلى أمر طريقه التكلف والاجتهاد ، وسبيله التأهب والاحتشاد . والمعنى فى الصرفة التى وصفوها لا يلائم هذه الصفة ، فدل على أن المراد غيرها ، والله أعلم .

وزعمت طائفة أن إعجازه إنما هو فيما يتضمنه من الإخبار عن الكوائن فى مستقبل الزمان نحو قوله سبحانه : ﴿ الٓم . غُلِبَتِ الرومُ فى أَدنَى الأَرْض ، وهُمْ من بعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُون ، فى بِضْعِ سِنين ﴾ [2] ، وكقوله سبحانه : ﴿ قُل للمخَلَّفِينَ من الأَعْرابِ ستُدعَوْنَ إلى قوم أُولى بأْس شديدٍ ﴾ [3] ، ونحوهما من الأخبار التى صدقت أقوالها مواقع أكوانها . قلت : ولا يشك فى أن هذا وما أشبهه من أخباره نوع من أنواع إعجازه ، ولكنه ليس بالأمر العام الموجود فى كل سورة من سور القرآن ، وقد جعل سبحانه فى صفة كل

---

(١) [الإسراء ١٧/٨٨] .

(٢) [الروم ٣٠/ ١ — ٣] . وفى « ب » إلى قوله تعالى « الأرض » الآية .

(٣) [الفتح ٤٨ / ١٦] .

سورة أن تكون معجزة بنفسها لا يقدر أحد من الخلق أن يأتى بمثلها ، فقال : ﴿ فأْتوا بسورة من مِثْلِهِ وادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ الله إنْ كُنْتُم صَادِقِين ﴾ [١] من غير تعيين[٢] ، فدل على أن المعنى فيه غير ما ذهبوا إليه .

وزعم آخرون أن إعجازه من جهة البلاغة [٣] ، وهم الأكثرون من علماء أهل النظر ، وفى كيفيتها يعرض لهم الإشكالُ ، ويصعب عليهم منه الانفصال ، ووجدت عامة أهل هذه المقالة قد جروا فى تسليم هذه الصفة للقرآن على نوع من التقليد وضرب من غلبة الظن دون التحقيق له وإحاطة العلم به ، ولذلك صاروا إذا سئلوا عن تحديد هذه البلاغة التى اختص بها القرآن ، الفائقة فى وصفها سائر البلاغات ، وعن المعنى الذى يتميز به عن وصفها سائر البلاغات ، وعن المعنى الذى يتميز به عن سائر أنواع الكلام الموصوف بالبلاغة ، قالوا إنه لا يمكننا تصويره ولا تحديده بأمر ظاهر نعلم به مباينة القرآن غيره من الكلام ، وإنما يعرفه العالمون به عند سماعه ضربًا من المعرفة لا يمكن تحديده ، وأحالوا على سائر أجناس الكلام الذى يقع منه التفاضل فتقع فى نفوس العلماء به عند سماعه معرفة ذلك ، ويتميز فى أفهامهم قبيل الفاضل من المفضول منه .

قالوا : وقد يخفى سببه عند البحث ويظهر أثره فى النفس حتى لا يلتبس على ذوى العلم والمعرفة به . قالوا : وقد توجد لبعض الكلام عذوبة فى السمع وهشاشة فى النفس لا توجد مثلها لغيره منه ، والكلامان معًا فصيحان ، ثم لا يوقف لشىء من ذلك على علة .

قلت : وهذا لا يقنع فى مثل هذا العلم ، ولا يشفى من داءِ الجهل به ،

(١) [البقرة - ٢/٢٣] .
(٢) فى « ب » : عبارة « من غير تعيين » ناقصة .
(٣) لخص السيوطى هذا الرأى فى كتاب الإتقان ط حجازى سنة ١٣٦٠هـ ٢/٢٠٤ .

وإنما هو إشكال أَحيل به على إبهام ، وقد تمثل بعضهم فى هذا بأَبيات جرير التي نحلها ذا الرُّمة[١] : ذكرت الرواة أن جريرًا مرّ بذى الرمة وقد عمل قصيدته التى أَولها :

نَبتْ عَيْنَاكَ عن طَلَلٍ بحُزْوَى عَفَتْهُ الريحُ وامتنح القِطَارَا

فقال : أَلا أُنجدك بأَبيات تزيد فيها ! فقال : نعم . فقال :

يعدُّ النَّاسِبُونَ بنى تَميمٍ بيوتَ المجْدِ أَربَعَةً كِبَارَا

يعدُّون الرَّباب وآل تَيم وسعداً ثم حنْظَلةَ الخِيارا

ويذهب بينها الْمَرْئِى لغوًا كما أَلغيتَ فى الدِّية الحُوارا

فوضعها ذو الرمة فى قصيدته ثم مرَّ به الفرزدق فسأَله عما أَحدث من الشعر ، فأَنشده القصيدة ، فلما بلغ هذه الأَبيات قال : ليس هذا من بحرك ، مُضيفها[٢] أَشدُّ لَحيين منك! قال : فاستدركها بطبعه ، وفطن لها بلطف ذهنه .

قلت : فأَما من لم يرض من المعرفة بظاهر السِّمة دون البحث عن باطن العلة ، ولم يقنع فى الأَمر بأَوائل البرهان حتى يستشهد لها دلائل الامتحان ، فإنه يقول إن الذى يوجد لهذا الكلام من العذوبة فى حس السامع ، والهشاشة فى نفسه ، وما يتحلى به من الرونق والبهجة التى يباين بها سائر الكلام حتى يكون له هذا الصنيع فى القلوب ، والتأْثير فى النفوس ، فتصطلح من أَجله الأَلْسُن على أنه كلام لا يشبهه كلام ، وتَحْصَرُ الأَقوال عن معارضته ، وتنقطع به الأَطماع عنها ، أَمر لا بد له من سبب ، بوجوده يجب له هذا

---

(١) راجع القصة فى الأغانى ط الساسى ١٦ / ١١٣ .

(٢) فى « ب » : مصنعها .

الحكم ، وبحصوله يستحق هذا الوصف . وقد استقرينا أوصافه الخارجة عنه ، وأسبابه النابتة منه ، فلم نجد شيئًا منها يثبت على النظر ، أو يستقيم فى القياس ، ويطرِّد على المعايير [١] ، فوجب أن يكون ذلك المعنى مطلوبًا من ذاته ، ومستقصًى من جهة نفسه : فدل النظر وشاهد العِبر على أن السبب له ، والعلة فيه [٢] أن أجناس الكلام مختلفة ، ومراتبها فى نسبة التبيان متفاوتة ، ودرجاتها فى البلاغة متباينة [٣] غير متساوية ؛ فمنها البليغ الرصين الجزل ، ومنها الفصيح القريب السهل ؛ ومنها الجائز الطَّلْقُ الرَّسْلُ . وهذه أقسام الكلام الفاضل المحمود دون النوع الهجين المذموم ، الذى لا يوجد فى القرآن شىء منه ألبتة .

فالقسم الأول أعلى طبقات الكلام وأرفعه ، والقسم الثانى أوسطه وأقصده ، والقسم الثالث أدناه وأقربه ؛ فحازت بلاغاتُ القرآن من كل قسم من هذه الأقسام حصةً ، وأخذت من كل نوع من أنواع شعبة ، فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفتى الفخامة والعذوبة ، وهما على الانفراد فى نعوتهما كالمتضادين لأن العذوبة نتاج السهولة ، والجزالة والمتانة فى الكلام تعالجان نوعًا من الوعورة ، فكان اجتماع الأمرين فى نظمه مع نبوّ كل واحد منهما على الآخر فضيلة خص بها القرآن ، يسرها الله بلطيف قدرته من أمره [٤] ليكون آية بينة لنبيه ، ودلالة له على صحة مادعا إليه من أمر دينه .

وإنما تعذر على البشر الإتيان بمثله لأمور : منها أن علمهم لا يحيط

---

(١) فى « ب » : ويطرد على معانى العبر .

(٢) لخص السيوطى هذا الرأى فى الإتقان ٢ / ٢٠٤ . ولخصه صاحب مفتاح السعادة ٢ / ٣٥٩ .

(٣) فى « ب » لفظة « متباينة » غير موجودة .

(٤) فى « ب » : لسترها بلطيف قدرته عن الزلة .

بجميع أسماءِ اللغة العربية [وبأَلفاظها [1]] التى هى ظروف المعانى والحوامل لها ، ولا تدرك أَفهامهم جميع معانى الأَشياء المحمولة على تلك الأَلفاظ ، ولا تكمل معرفتهم لاستيفاءِ جميع وجوه النظوم التى بها يكون ائتلافها وارتباط بعضها ببعض ، فيتوصلوا باختيار الأَفضل عن الأَحسن[2] من وجوهها إلى أَن يأْتوا بكلام مثله ، وإنما يقوم الكلام بهذه الأَشياءِ الثلاثة : لفظ حامل ، ومعنى به قائم ، ورباط لهما ناظم . وإذا تأَملت القرآن وجدت هذه الأُمور منه فى غاية الشرف والفضيلة حتى لا ترى شيئًا من الأَلفاظ أَفصح ولا أَجزل ولا أَعذب من أَلفاظه ، ولا ترى نظمًا أَحسن تأْليفًا وأَشد تلاؤمًا وتشاكلاً من نظمه . وأَما المعانى فلا خفاءَ على ذى عقل أَنها هى التى تشهد لها العقول بالتقدم فى أَبوابها ، والترقى إلى أَعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها .

وقد توجد هذه الفضائل الثلاث على التفرق فى أَنواع الكلام ، فأَما أَن توجد مجموعة فى نوع واحد منه فلم توجد إلا فى كلام العليم القدير ، الذى أَحاط بكل شىء علمًا ، وأَحصى كل شىء عددًا .

فتفهم الآن واعلم أَن القرآن إنما صار معجزًا لأَنه جاءَ بأَفصح الأَلفاظ فى أَحسن نظوم التأْليف مضمنًا أَصح المعانى ، من توحيد له عزت قدرته ، وتنزيه له فى صفاته ، ودعاء إلى طاعته ، وبيان بمنهاج عبادته ؛ من تحليل وتحريم ، وحظر وإباحة ، ومن وعظ [3] وتقويم وأَمر بمعروف ونهى عن منكر ، وإرشاد إلى محاسن الأَخلاق ، وزجر عن مساوئها ، واضعًا كل شىءٍ منها موضعه الذى لا يرى شىء أَولى منه ، ولا يرى [4] فى صورة العقل أَمر أَليق [5]

---

(١) فى الأصل أوضاعها ويبدو أنها تصحيف لكلمة ألفاظها التى أثبتناها والتى تتفق مع السياق .

(٢) فى « ب » الأخس .

(٣) فى الأصل واو قبل كلمة (وعظ) ويظهر أن هذا حمل ناشر « ا » أن يقرأ العبارة : ومن ووعظ . ونحن نرجح القراءة المثبتة لتمشيها مع السياق .

(٤) فى « ب » : ولا يتوهم .

(٥) فى « ب » : أليق به منه .

منه ، مودعًا أخبار القرون الماضية وما نزل من مَثُلات الله بمن عصى وعاند منهم ، منبئًا عن الكوائن المستقبلة فى الأَعصار الباقية من الزمان ، جامعًا فى ذلك بين الحجة والمحتج له ، والدليل والمدلول عليه ، ليكون ذلك أَوكد للزوم ما دعا إليه ، وإنباء عن وجوب ما أَمر به ، ونهى عنه .

ومعلوم أَن الإِتيان بمثل هذه الأمور ، والجمع بين شتاتها حتى تنتظم وتتسق أَمر تعجز عنه قُوى البشر ، ولا تبلغه قدَرهم ، فانقطع الخلق دونه ، وعجزوا عن معارضته بمثله أَو مناقضته فى شكله . ثم صار المعاندون له ممن كفر به وأَنكره يقولون مرة إنه شعر لما رأَوه كلامًا منظومًا ، ومرة سحر إذ رأَوه معجوزًا عنه ، غير مقدور عليه ، وقد كانوا يجدون له وقعًا فى القلوب وقرعًا فى النفوس يُريبهم ويحيرهم ، فلم يتمالكوا أَن يعترفوا به نوعًا من الاعتراف . ولذلك قال قائلهم : إن له حلاوة وإن عليه طلاوة . وكانوا مرة لجهلهم وحيرتهم يقولون : ﴿ أَساطير الأَولين اكْتَتَبها فَهى تُمْلَى عَلَيْه بُكرةً وَأَصِيلاً ﴾[1] مع علمهم أَن صاحبه أُمىٌّ وليس بحضرته من يملى أَو يكتب ، فى نحو ذلك من الأمور التى جماعها الجهل والعجز ، وقد حكى الله جل وعز عن بعض مردتهم وشياطينهم — ويقال هو الوليد بن المغيرة المخزومى — أَنه لما طال فكره فى أَمر القرآن ، وكثر ضجره منه ، وضرب له الأَخماس من رأَيه فى الأَسداس ، لم يقدر على أَكثر من قوله : ﴿ إن هذَا إلَّا قولُ البَشَر ﴾[2] عنادًا للحق وجهلاً به ، وذهابًا عن الحجة وانقطاعًا دونها ، وقد وصف[3] ذلك من حاله وشدة حيرته فقال سبحانه : ﴿ إنه فكَّرَ وقدَّر ، فقُتل كيف قدَّرَ ، ثم قُتِل كيف قَدَّر . ثم نَظَر ثم عَبَس وبَسَر . ثم أَدبر واسْتكبَر . فقال إن هذا إلا سحرٌ يُؤْثَر . إنْ هذا إلَّا قولُ البشَر ﴾[4] .

---

(١) [الفرقان ٢٥/٥] .
(٢) [المدثر ٧٤/٢٢] .
(٣) فى « ب » زيادة [الله تعالى] .
(٤) [المدثر ٧٤/١٤ – ٢٢] .

وكيفما كانت الحال ودارت القصة ، فقد حصل باعترافهم قولاً ، وانقطاعهم عن معارضته فعلاً أنه معجز ، وفى ذلك قيام الحجة وثبوت المعجزة ، والحمد لله[١] .

ثم اعلم أن عمود هذه البلاغة التى تجمع[٢] لها هذه الصفات هو وضع كل نوع من الألفاظ التى تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به ، الذى إذا أُبدل مكانه غيره جاء منه : إما تبدل المعنى الذى يكون منه فساد الكلام ، وإما ذهاب الرونق الذى يكون معه سقوط البلاغة ، ذلك أن فى الكلام ألفاظًا متقاربة فى المعانى[٣] يحسب أكثر الناس أنها متساوية فى إفادة بيان مراد الخطاب ؛ كالعلم والمعرفة ، والحمد والشكر ، والبخل والشح ، وكالنعت والصفة ، وكقولك : اقعد واجلس ، وبَلَى ونعم ، وذلك وذاك ، ومن وعن ، ونحوهما من الأسماء والأفعال والحروف والصفات مما سنذكر تفصيله فيما بعد ، والأمر فيها وفى ترتيبها عند علماء أهل اللغة بخلاف ذلك ، لأن لكل لفظة منها خاصية تتميز بها عن صاحبتها فى بعض معانيها وإن كانا قد يشتركان فى بعضها . تقول : عرفت الشىء وعلمته إذا أردت الإثبات الذى يرتفع معه الجهل ؛ إلاَّ أن قولك : عرفت . يقتضى مفعولاً واحداً كقولك : عرفت زيدا ، وعلمت يقتضى مفعولين ، كقولك : علمت زيداً عاقلاً ولذلك صارت المعرفة تستعمل خصوصاً فى توحيد الله تعالى وإثبات ذاته ، فتقول : عرفت الله ، ولا تقول علمت الله ، إلا أن تضيف إليه صفة من الصفات فتقول : علمت الله عدلاً ، وعلمته قادرًا ، ونحو ذلك من الصفات . وحقيقة

---

(١) يرد هذا الجزء ملخصاً فى الإتقان ٢/٢٠٥ ، وفى مفتاح السعادة ٢/٣٦٠ .

(٢) فى (ب) تجتمع .

(٣) لعل النظر إلى بلاغة القرآن من هذه الوجهة هو الذى دفع بعض العلماء مثل أبى هلال العسكرى إلى العناية بالفروق اللغوية .

البيان فى هذا أن العلم ضده الجهل ، والمعرفة ضدها النكرة . والحمد والشكر قد يشتركان أيضًا ، والحمد لله على نعمة أى الشكر لله عليها ، ثم قد يتميز الشكر عن الحمد فى أشياء ؛ فيكون الحمد ابتداءً بمعنى الثناء ، ولا يكون الشكر إلا على الجزاء ، تقول : حمدت زيدًا[1] إذا أثنيت عليه فى أخلاقه ومذاهبه وإن لم يكن سبق إليك منه معروف ، وشكرت زيدًا إذا أردت جزاءه على معروف أسداه[2] إليك ، ثم قد يكون الشكر قولاً كالحمد ، ويكون فعلاً كقوله جل وعز : ﴿ اعملوا آل داود شكرًا ﴾[3] . وإذا أردت أن تتبين حقيقة الفرق بينهما اعتبرت كل واحد منهما بضده ، وذلك أن ضد الحمد الذم ، وضد الشكر الكفران ، وقد يكون الحمد على المحبوب والمكروه ، ولا يكون الشكر إلا على المحبوب .

وأما الشح والبخل فقد زعم بعضهم أن البخل منع الحق ، وهو ظلم ، والشح ما يجده الشحيح فى نفسه من الحزازة عند أداءِ الحق وإخراجه من يده . قال : ولذلك قيل : « الشحيح أعذر من الظالم » . قلت : وقد وجدت هذا المعنى على العكس مما روى عن ابن مسعود : حدثنا أحمد بن إبراهيم بن مالك قال : نا عمر بن حفص السدوسى قال : نا المسعودى عن جامع بن شداد عن أبى الشعثاء قال : قلت لعبد الله بن مسعود ، يا أبا عبد الرحمن إنى أخاف أن أكون قد هلكت ، قال : ولم ذاك ؟ . قلت : لأنى سمعت الله يقول : ﴿ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نفسِه فأُولئك هُمُ المفْلِحُون ﴾[4] ، وأنا رجل شحيح لا يكاد يخرج من يدى شىء . قال : ليس ذاك الشح الذى ذكره الله فى

---

(١) هكذا فى « ب » وفى « أ » والطبعة الأولى « هذا » .

(٢) هكذا فى (« ب » وفى « أ » والطبعة الأولى « ابتدأه » .

(٣) [سبأ ٣٤/ ١٣] . (٤) [الحشر ٥٩/ ٩] .

القرآن ، ولكن الشح أن تأكل مال أخيك ظلمًا ، ولكن ذاك البخل ، وبئس الشيء البخل .

وأما النعت والصفة ، فإن الصفة أعم والنعت أخص ، وذلك أنك تقول : زيد عاقل وحليم ، وعمرو جاهل وسفيه ، وكذلك تقول : زيد أسود ودميم ، و [عمرو] [١] أبيض وجميل ، فيكون ذلك صفة ونعتًا لهما وأما النعت فلا يكاد يطلق إلا فيما لا يزول ولا يتبدل ، كالطول والقصر والسواد والبياض ونحوهما من الأمور اللازمة .

وأما قول القائل لصاحبه : اقعد واجلس ، فقد حكى لنا عن النضر بن شميل أنه دخل على المأمون عند مقدمه مرو ، فمثل بين يديه وسلم ؛ فقال له المأمون : اجلس ، فقال : يا أمير المؤمنين ما أنا بمضطجع فأجلس ، قال : فكيف تقول ؟ قال : قل اقعد . فأمر له بجائزة .

قلت : وبيان ما قاله النضر بن شميل إنما يصح إذا اعتبرت إحدى الصفتين بالأخرى عند المقابلة ، فتقول : القيام والقعود كما تقول : الحركة والسكون ، ولا نسمعهم يقولون القيام والجلوس وإنما يقال : قعد الرجل عن قيام ، وجلس عن ضجعة واستلقاء ، ونحو ذلك .

وأما قولك : بلى ونعم ؛ فإن بلى جواب عن الاستفهام بحرف النفي كقول القائل : ألم تفعل كذا ؟ ، فيقول صاحبه : بلى ، كقوله عز وجل : ﴿ أَلستُ بربِّكُم قَالُوا بَلَى﴾ [٢] . وأما نعم فهو جواب عن الاستفهام نحو هل [٣] كقوله سبحانه [٤] : ﴿ هل وجدتُم ما وَعَدَكُم ربّكم حقًّا قالوا نعم﴾ [٥] .

---

(١) وردت العبارة في الأصل بغير (عمرو) وقد زدناها ليستقيم الكلام .

(٢) [الأعراف ٧/١٧٢] .

(٣) في الأصل : نحو فهل وقد سقطت هاتان الكلمتان من طبعة (ص) .

(٤) في طبعة (ص) : كقوله تعالى .

(٥) [الأعراف ٧/٤٤] .

وقال الفرّاء : بلى لا يكون إلا جوابًا عن مسأَلة يدخلها طرف من الجحد . وحكى عنه أنه قال : لو قالت الذرية عندما قيل لهم أَلست بربكم ، نعم ، بدل قولهم بلى لكفروا كلهم .

وأَما قولك : ذاك وذلك[1] فإن الإشارة بذلك إنما تقع إلى الشىء القريب منك ، وذاك إنما يستعمل فيما كان متراخيًا عنك .

وأَما مِن وعن فإنهما يفترقان فى مواضع[2] كقولك : أَخذت منه مالا ، وأَخذت عنه علمًا ، فإذا قلت : سمعت منه كلامًا أَردت سماعه من فيه ، وإذا قلت : سمعت عنه حديثًا كان ذلك عن بلاغ ، وهذا على ظاهر الكلام وغالبه . وقد يتعارفان[3] فى مواضع من الكلام . ومما يدخل فى هذا الباب ما حدثنى محمد بن سعدويه قال : حدثنى محمد بن عبد الله بن الجنيد قال : حدثنى محمد بن النضر بن مساور قال : حدثنا جعفر بن سليمان عن مالك بن دينار قال : جمعنا الحسن لعرض المصاحف أنا وأَبا العالية الرياحى ونصر بن عاصم الليثى وعاصمًا الجحدرى ؛ فقال رجل يا أَبا العالية قول الله تعالى فى كتابه : ﴿ فويلٌ للمصَلِّين الذين هُمْ عن صَلاتِهم سَاهُون[4] ﴾ ما هذا السهو ؟ ، قال الذى لا يدرى عن كم ينصرف ؛ عن شفع أَو عن وتر ، فقال الحسن : مه يا أَبا العالية ليس هذا بل الذين سهوا عن ميقاتهم حتى تفوتهم . قال الحسن : أَلا ترى قوله عز وجل : (عن صلاتهم) ، وناه أَبو رجاء الغنوى ، نا محمد بن الجهم السجزى ، نا الهيثم بن خالد المنقرى

---

(١) كذا فى « ب » وفى « أ » والطبعة الأولى ذاك .

(٢) فى « ب » زيادة (كثيرة) .

(٣) لعلها يتقاربان وفى « ب » يتعاقبان .

(٤) [الماعون ١٠٧ / ٥] .

عن أبى عكرمة عن جعفر بن سليمان عن مالك بن دينار نحوه . قلت : وإنما أُتِىَ أبو العالية فى هذا حيث لم يفرق بين حرف عَن وفى ، فتنبه له الحسن فقال : ألا ترى قوله : ﴿ عن صلاتهم ﴾ يؤيد أن السهو الذى هو الغلط فى فى العدد إنما هو[1] يعرض فى الصلاة بعد ملابستها ، فلو كان هو المراد لقيل : فى صلاتهم ساهون ، فلما قال عن صلاتهم دل على أن المراد به الذهاب عن الوقت . ونظير هذا ما قاله القُتَبِىُّ[2] فى قوله تعالى : ﴿ ومن يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لهُ قَرِين ﴾[3] زعم أنه من قوله : عشوت إلى النار أعشو إذا نظرت إليها . فغلَّطوه فى ذلك وقالوا : إنما معنى قوله : من يُعرض عن ذكر الرحمن ، ولم يفرق بين عشوت إلى الشىء وعشوت عنه ـ وهذا الباب عظيم الخطر ، وكثيراً ما يعرض فيه الغلط ، وقديماً عنى به العربى الصريح ـ فلم يحسن[4] ترتيبه وتنزيله .

حدثنى عبد العزيز بن محمد المسكنى قال : حدثنى إسحاق بن إبراهيم قال حدثنى سويد نا ابن المبارك عن عيسى بن عبد الرحمن قال : حدثنى طلحة اليامى قال : حدثنى عبد الرحمن بن عوسجة عن البراءِ بن عازب أن أعرابيًّا جاءَ إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : علِّمنى عملا يدخلنى الجنة فقال : اعتق النسمة وفكَّ الرقبة قال : أوليسا واحدًا ؟ . قال : لا ، عتق النسمة أن تنفرد بعتقها وفك الرقبة أن تعين فى ثمنها . فتأمل كيف رتب الكلامين

---

(١) سقطت (هو) فى (ص) .

(٢) هو عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى المتوفى سنة ٢٧٦ أو سنة ٢٧٠هـ ، وقد ذكر صديق فى هامش له (ا) ٣٩ أن الوفاة كانت سنة سبع ومائتين وهو مغاير لما تذكره المصادر فى ترجمته .

(٣) [الزخرف ٤٣ / ٣٦] . (٤) يقصد القتبى .

واقتضى من كل واحد منهما أخص البيانين[1] فيما وضع له من المعنى وضمنه من المراد . وحدثنى عبد الله بن أسباط عن شيوخه قال جمع هارون الرشيد سيبويه والكسائى فألقى سيبويه على الكسائى مسألة فقال : هل يجوز قول القائل : كاد الزنبور يكون العقرب فكأنه إياها أو كأنها إياه ؟ فجوزه الكسائى على معنى كأنه هى أو كأنها هو ، وأباه سيبويه ، فأحضر الرشيد جماعة من الأعراب الفصحاء كانوا مقيمين بالباب وسألهم عنها بحضرتهما فصوبوا قول سيبويه ولم يجوزوا ما قاله الكسائى ، قيل وذلك أن حرف (إيَّا) إنما يستعمل فى موضع النصب ، وهى هنا فى موضع رفع فلم يجز . ومثل هذا كثير واستقصاؤه يطول .

قلت : ومن ها هنا تهيب كثير من السلف تفسير القرآن ، وتركوا القول فيه حذرًا أن يزلوا فيذهبوا عن المراد ، وإن كانوا علماء باللسان ، فقهاء فى الدين ؛ فكان الأصمعى — وهو إمام أهل اللغة — لا يفسر شيئًا من غريب القرآن . وحكى عنه أنه سئل عن قوله سبحانه : ﴿ قد شغفها حُبًّا ﴾[2] فسكت وقال : هذا فى القرآن ، ثم ذكر قولاً لبعض العرب فى جارية لقوم أرادوا بيعها : أتبيعونها وهى لكم شغاف ؟ . ولم يزد على ذلك ، أو نحو هذا الكلام .

قلت : ولهذا ما حث صلى الله عليه وسلم على تعلم إعراب القرآن وطلب معانى الغريب منه . نا إسماعيل بن محمد الصفار قال : حدثنى محمد بن وهب الثقفى[3] ، قال حدثنى محمد بن سهل العسكرى قال حدثنى ابن أبى زائدة عن عبد الله بن سعيد المقبرى عن أبيه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه » .

---

(١) فى « ب » (الشأنين) .
(٢) [يوسف ١٢/ ٣٠] .
(٣) سقطت الثقفى فى (ا) .

قلت : فإذا عرفت هذه الأصول تبينت أن القوم إنما كاعوا[١] وجبنوا عن معارضة القرآن لما قد كان يئودهم ويتصعدهم منه ، وقد كانوا بطباعهم يتبينون مواضع تلك الأمور ويعرفون ما يلزمهم من شروطها ومن العهدة فيها ، ويعلمون أنهم لا يبلغون شأوها ، فتركوا المعارضة لعجزهم ، وأقبلوا على المحاربة لجهلهم ، فكان حظهم مما فروا إليه حظهم مما فزعوا منه ﴿ فغُلِبوا هنالك وانقَلبوا صاغرين ﴾ والحمد لله رب العالمين .

فإن قيل : إنا إذا تلونا القرآن وتأملناه وجدنا معظم كلامه مبنيًّا ومؤلفًا من ألفاظ مبتذلة [٢] فى مخاطبات العرب مستعملة فى محاوراتهم ، وحظ الغريب المشكل منه بالإضافة إلى الكثير من واضحه قليل ، وعدد الفقر والغرر من ألفاظه بالقياس إلى مباذله ومراسيله عدد يسير ، فكيف يتوهم عليهم العجز عن معارضته والإتيان بمثله ، وهم عرب فصحاء مقتدرون على التصرف فى أودية الكلام ، عارفون بنظومه . قصيده ورجزه وسجعه ، وسائر فنونه ، فلو كانوا أرادوه وقنعوا عن شفاءِ الأنفس به لسهل ذلك عليهم ، وإنما عاقهم عن ذلك رأى آخر كان أقوى فى نفوسهم وأجدى عليهم فى مبلغ آرائهم وعقولهم ، وهو مناجزتهم إياه الحرب ومعاجلته بالإهلاك استراحة إلى الخلاص منه ، وكراهة لمطاولته على القول ومعارضته بالكلام الذى يقتضى الجواب ، فيتمادى بهم الزمان للنظر فيه والانتقاد له ، فتكثر الدعاوى ، ويخفى موضع الفضل بين الكلامين ، فمالوا إلى هذا الرأى قصدًا إلى اجتياحه واستئصاله ، إذ كانوا فيما يرونه مستظهرين عليه مستعلين بالقدرة فوقه .

قيل : إنا قدمنا من بيان أوصاف بلاغة القرآن وذكرنا من شرائطها ما أسقطنا به عن أنفسنا هذا السؤال . وزعمنا أنها أمور لا تجتمع لأحد من

---

(١) كاع عن الشيء هابه وجبن عنه .
(٢) فى الأصل مبذلة وصححها « ا » مبتذلة .

البشر ولا يجوز أن تأتى عليها قدرته ، وإن كان أفصح الناس وأعرفهم بطرق الكلام وأساليب فنون البيان ، وذكرنا العلة فى ذلك ، وبينا المعنى فيه ، ولم نقتصر فيما اعتمدناه من البلاغة لإعجاز القرآن على مفرد الألفاظ التى منها يتركب الكلام دون ما يتضمنه من ودائعه التى هى معانيه ، وملابسه التى هى نظوم تأليفه .

وقد قال بعض العلماء [١] فى الأسماء اللغوية وهى نوع واحد من الأنواع الثلاثة التى شرطنا أنه لا يجوز أن يحيط بها كلها إلا نبى ؛ وقد كان عمر ابن الخطاب رضى الله عنه – وهو من الفصاحة فى ذروة السنام والغارب – يقرأ قوله عز وجل : ﴿ وفاكهة وأبًّا ﴾[٢] فلا يعرفه فيراجع نفسه ويقول : ما الأبّ ؟ ثم يقول : إن هذا تكلف منك ياابن الخطاب . وكان ابن عباس رحمه الله – وهو ترجمان القرآن ووارث علمه – يقول : لا أعرف حنانًا ولا غسلين ولا الرقيم . هل فى اللغة التفث فى شىء من كلام العرب ؟ ، وإنما أخذوه عن أهل التفسير على ما عقلوه من مراد الخطاب .

فأما المعانى التى تحملها الألفاظ فالأمر فى معاناتها أشد لأنها نتائج العقول وولائد الأفهام وبنات الأفكار .

وأما رسوم النظم فالحاجة إلى الثقافة والحذق فيها أكثر لأنها لجام الألفاظ وزمام المعانى وبه تنتظم[٣] أجزاء الكلام ، ويلتئم بعضه ببعض فتقوم له صورة فى النفس يتشكل بها البيان .

---

(١) يذكر (ا) أنه الإمام الشافعى ، وينقل قوله فى أوائل الرسالة : لسان العرب أوسع الألسنة مذهباً ، وأكثرها ألفاظاً ، ولانعلم أن يحيط بجميع علمه إنسان غير نبى ولكنه لايذهب منه شىء على عامتها .

(٢) (عبس ٨٠ / ٣١) .

(٣) الرسم هنا غير واضح فى الأصل ، وقد قرأه (ا) : وبه يتصل أخذ الكلام .

وإذا كان الأمر فى ذلك على ما وصفناه فقد علم أنه ليس المفردُ [١] بذَرَبِ اللسان وطلاقته كافياً لهذا الشأن ، ولا كل من أوتى حظًّا من بديهة وعارضة كان ناهضاً بحمله ومضطلعًا بعبئه ما لم يَجمعْ إليها سائر الشرائط التى ذكرناها على الوجه الذى حددناه ، وأنى لهم ذلك ومن لهم به ؟ و﴿ لئن اجتَمعت الإِنسُ والجنُّ عَلى أَن يأْتُوا بِمثْلِ هذا القُرآنِ لا يأْتُون بمثله ولوْ كان بعضُهم لبعضٍ ظهيرًا ﴾[٢] .

وأما ما ذكروه من قلة الغريب فى ألفاظ القرآن بالإضافة إلى الواضح منها ، فليست الغرابة مما شرطناه فى حدود البلاغة ، وإنما يكثر وحشى الغريب فى كلام الأَوحاش من الناس ، والأَجلاف من جفاة العرب ، الذين يذهبون مذاهب العنجهية ، ولا يعرفون تقطيع الكلام وتنزيله والتخير له ، وليس ذلك معدودًا فى النوع الأَفضل من أنواعه . وإنما المختار منه النمط الأَقصد الذى جاء به القرآن ، وهو الذى جمع البلاغة والفخامة إلى العذوبة والسهولة . وقد يعد من أَلفاظ الغريب فى نعوت الطويل نحو من ستين لفظة أَكثرها بشع شنع . كالعَشَنَّقِ[٣] ، والعَشَنَّط[٤] ، والعطنَّط ، والشوقب والشوذب والسلهب[٥] ، والقوق ، والقاق ، والطوط والطاط . فاصطلح أَهل البلاغة على نبذها وترك استعمالها فى مرسل الكلام ، واستَثْقَلُوا الطويل . وهذا يدلك على أَن البلاغة لا تعبأُ بالغرابة ولا تعمل بها شيئًا .

فإن قيل : إنا لا نسلم لكم ما ادعيتموه من أَن العبارات الواقعة فى

---

(١) فى « ب » : التفرد .
(٢) [الإسراء ١٧ /٨٨] .
(٣) الشعنق والعشانق (كعملس وعلابط) الطويل ليس بضخم ولا مثقل .
(٤) العشنط (كعشنق) التار الظريف الحسن الجسم ، وقد وردت هذه الكلمة فى (ا) محرفة إلى عنشط فى صلب الكتاب وهامشه .
(٥) فى الأصل السهلب ولم ترد فى كتب اللغة .

القرآن إنما وقعت فى أفصح وجوه البيان وأحسنها ، لوجودنا أشياء منها بخلاف هذا الوصف عند أصحاب اللغة وأهل المعرفة بها كقوله : ﴿ فأَكَلَهُ الذِّئْبُ ﴾ (١) وإنما يستعمل مثل هذا فى فعل السباع خصوصاً «الافتراس» ، يقال : افترسه السَّبُعُ . هذا هو المختار الفصيح فى معناه ، فأما الأكل فهو عام لا يختص به نوع من الحيوان دون نوع . وكقوله : ﴿ ذلكَ كَيْلٌ يسيرٌ ﴾ (٢) قالوا : وما اليسير والعسير من الكيل والاكتيال ، وما وجه اختصاصه بهذه وأنت لا تسمع فصيحًا يقول : كِلْتُ لزيد كيلاً يسيرًا إلا أن يعنى به أنه يسير العدد والكمية . وكقوله : ﴿ وانْطلقَ الملأُ منهم أَنِ امْشُوا واصبرُوا على آلهتكم ﴾ (٣) ، والمشى فى هذا ليس بأبلغ الكلام ، ولو قيل بدل ذلك أن امضوا وانطلقوا لكان أبلغ وأحسن . وكقوله : ﴿ هَلَكَ عنِّى سلطانِيهْ ﴾ (٤) وإنما يستعمل لفظ الهلاك فى الأعيان والأشخاص كقوله : هلك زيد ، وهلك مال عمرو ونحوهما ، فأما الأمور التى هى معان وليست بأعيان ولا أشخاص فلا يكادون يستعملونه فيها . ولو قال قائل : هلك عن فلان علمه أو هلك جاهه على معنى ذهب علمه وجاهه لكان مستقبحًا غير مستحسن . وكقوله سبحانه : ﴿ وإنهُ لِحُبِّ الخيرِ لشديد ﴾ (٥) وأنت لا تسمع فصيحًا يقول : أنا لحب زيد شديد ، وإنما وجه الكلام وصحته أن يقال : أنا شديد الحب لزيد ، وللمال ، ونحوه . وكقوله سبحانه : ﴿ والذينَ هُمْ للزكاةِ فاعِلُون ﴾ (٦) ولا يقول أحد من الناس : فعل زيد الزكاة ، إنما يقال : زَكّى الرجل ماله ، وأدى زكاة ماله ، أو نحو ذلك من الكلام ، وكقوله سبحانه : ﴿ إنَّ الذينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالحاتِ سيَجْعلُ لَهمُ الرحْمَنُ وُدًّا ﴾ (٧) ، ومن الذى يقول :

---

(١) [يوسف ١٢/١٧] .
(٢) [يوسف ١٢/٦٥] .
(٣) [ص ٣٨/٦] .
(٤) [الحاقة ٦٩/٢٩] .
(٥) [العاديات ١٠٠/٨] .
(٦) [المؤمنون ٢٣/٤] .
(٧) [مريم ١٩/٩٦] .

جعلت لفلان ودًّا وحبًّا بمعنى أحببته ؟ ، وإنما يقول وددته وأحببته ، أو بذلت له ودى ؛ أو نحو ذلك من القول . وكقوله سبحانه : ﴿ قُلْ عَسى أَن يكونَ رَدِفَ لكُمْ بعضُ الذى تَستَعْجلونَ ﴾[١] ، وإنما هو ردفه يردفه من غير إدغام اللام . وكقوله سبحانه : ﴿ ومن يُرِد فيه بإلحادٍ بظُلمٍ ﴾[٢] . وكقوله سبحانه : ﴿ أَوَلم يروْا أَنَّ اللهَ الذى خلق السماواتِ والأَرضَ ولم يَعْىَ بخَلقِهِنَّ بقادِرٍ ﴾[٣] فأَدخل الباءَ فى قوله بإلحاد وفى قوله بقادر ، وهى لاموضع لها ها هنا[٤] . ولو قيل : ومن يرد فيه إلحادًا بظلم ، وقيل : قادر على أَن يحيى الموتى ، كان كلامًا صحيحًا لا يشكل معناه ولا يشتبه . ولو جاز إدخال الباء فى قوله : بقادر لجاز أَن يقال : ظننتُ أَن زيدًا بخارج ، وهذا غير جائزالبتة .

قالوا : ومما يعرض فيه من سوء التأْليف ومن نسق الكلام على ما ينبو عنه ولا يليق به قوله سبحانه : ﴿ كما أَخرجَك ربُّك من بيْتِك بالحقِّ وإنَّ فريقًا من المؤمنين لكارهُون ﴾[٥] عقيب قوله : ﴿ أُولئك هُمُ المؤمِنُون حقًّا . لهم درجاتٌ عِنْد ربِّهم ومغفرةٌ ورزقٌ كريم ﴾[٦] وكما (فى) تشبيه شىء بشىء ولم يتقدم من[٧] أول الكلام ما يشبه به ما تأَخر منه . وكقوله سبحانه : ﴿ وقلْ إنى أَنا النذيرُ المبينُ كما أَنزَلْنَا عَلَى المقْتَسِمِينَ الذين جَعَلوا القرآن عِضِين﴾[٨] ، وقوله تعالى : ﴿ كما أَرسَلْنَا فِيكُمْ رسُولاً مِنْكُمْ[٩] .. ﴾ الآية .

قالوا : وقد يوجد فى القرآن الحذف الكثير والاختصار الذى يشكل معه وجه الكلام ومعناه كقوله سبحانه : ﴿ وَلو أَنَّ قرآنًا سُيِّرتْ به الجبالُ أَو

---

(١) [النمل ٢٧/٧٢] .
(٢) [الحج ٢٢/٢٥] .
(٣) [الأحقاف ٤٦/٣٣] .
(٤) نقلها (ص) هنا .
(٥) [الأنفال ٨/٥] .
(٦) [(الأنفال ٨/٤] .
(٧) نقلها (ص) ف .
(٨) [الحجر ١٥/٨٩ – ٩١] .
(٩) [البقرة ٢/١٥١] .

قُطِّعَتْ به الأَرضُ أَو كُلِّمَ به الموتَى ﴾[١] الآية ثم لم يذكر جوابه ، وفى ذلك تبتير [٢] الكلام وإبطال فائدته . وكقوله سبحانه : ﴿ حَتَّى إِذا جاءُوها وفُتِحَتْ أَبوابُها ﴾[٣] الآية ونظائرها . . ثم قد يوجد فيه على العكس منه التكرار المضاعف كقوله سبحانه فى سورة الرحمٰن : ﴿ فبِأَىِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ ﴾ وفى سورة المرسلات : ﴿ ويلٌ يومئذ للمُكذِّبين ﴾ ، وليس واحد من المذهبين بالمحمود عندأهل اللسان ، ولا بالمعدود فى النوع الأَفضل من طَبقات البيان . وقد يدخل بين الكلامين ما ليس من جنسهما ولا قبيلهما كقوله سبحانه : ﴿ لاتُحركْ بهِ لسانَكَ لتَعجَلَ به إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَه وقُرآنَه فإِذا قَرَأْناه فاتَّبِعْ قُرآنه ثُمَّ إِنَّ عَلَينا بَيانه ﴾[٤] عقيب قوله ﴿ بَل الإِنسانُ على نَفْسِهِ بَصيرة ، وَلو أَلْقَى مَعَاذِيرَه ﴾ بين يدى قوله : ﴿ كلاَّ بلْ تُحِبُّونَ العاجلَةَ وتَذَرُونَ الآخِرة ﴾ وليس[٥] ذلك بالمستحسن ولا بالمختار عند أهل البلاغة وأَرباب البيان ، والأَحسن أَن يكون الكلام مفصلاً مقسوماً على أَبوابه ، وأَن يكون لكل نوع منه حيز وقبيل لايدخل فى قبيل غيره .

قالوا : ولو كانت سور القرآن على هذا الترتيب فتكون أَخبار الأُمم وأَقاصيصهم فى سورة ، والمواعظ والأَمثال فى سورة ، والاحكام فى أُخرى لكان ذلك أَحسن فى الترتيب ، وأَعون على الحفظ ، وأَدل على المراد ؛ فى أَمور غير هذه يكثر تعدادها .

والجواب : أَن القول فى وجود أَلفاظ القرآن وبلاغتها على النعت الذى ،

---

(١) [الرعد ١٣/٣١] .

(٢) هكذا فى « ب » وفى « ا » والطبعة الأولى تبيين ، والسياق يقتضى ما أثبتنا .

(٣) [الزمر ٣٩/٧٣] .　　(٤) [القيامة ٧٥/١٩] .

(٥) هكذا فى « ب » وفى الأصل ولا .

وصفناه صحيح لا ينكره إلا جاهل أو معاند ، وليس الأمر فى معانى هذه الآى على ما تأولوه ولا المراد فى أكثرها على ما ظنوه وتوهموه .

فأما قوله تعالى : ﴿ فأَكَلَهُ الذئْبُ ﴾ فإن الافتراس معناه فى فعل السبع القتل فحسب ، وأصل الفَرْس دق العنق ، والقوم إنما ادعوا على الذئب أنه أكله أكلاً وأتى على جميع أجزائه وأعضائه ، فلم يترك مفصلاً ولا عظمًا ، وذلك أنهم خافوا مطالبة أبيهم إياهم بأثر باق منه يشهد بصحة ما ذكروه ، فادعوا فيه الأكل ليزيلوا عن أنفسهم المطالبة ، والفرس لا يعطى تمام هذا المعنى ، فلم يصلح على هذا أن يُعَبَّر عنه إلا بالأكل ؛ على أن لفظ الأكل شائع[1] الاستعمال فى الذئب وغيره من السباع . وحكى ابن السِّكيّت فى ألفاظ العرب قولهم : ؛أكل الذئب الشاة فما ترك منها تامورا[2] ، وقال بعض شعرائهم[3] :

فتًى ليْسَ لابْنِ العَمِّ كالذئبِ إن رأى　　بِصَاحِبه يومًا دمًا فَهوَ آكِلُهُ

وقال آخر[4] :

أَبا خُراشَةَ أَمَّــا أَنتَ ذا نَفَــر　　فإنَّ قَومِىَ لم تــأْكُلْهُم الضَّبُعُ

وفى حديث عتبة بن أبى لهب أنه لما دعا عليه السلام فقال : اللهم سلط عليه كلبًا من كلابك ، فخرج فى تَجْر إلى الشام ، فنزل فى بعض المنازل ،

---

(١) فى « ب » سائغ .

(٢) التامور : الوعاء والنفس وحياتها ، والقلب وحبته وحياته ودمه ، أو الدم . . . إلخ .

(٣) ينسب البيت للفرزدق ، وفى بعض المراجع لزينب بنت الطثرية . راجع : اللسان ١٣ / ٢٠٤ التنبيه ٣٦ ، الأغانى ٧ / ١٢٣ ، حماسه البحترى ٣٩٦ ، ويروى للفرزدق بيت قريب فى نفس المعنى (راجع الحيوان ٦ / ٢٩٨ ، المعانى الكبير ١ / ٢٨٥ . ويقول الجاحظ : (الحيوان ط ، هارون ٧ / ٦٣) : « الذئب لا يطمع فيه صاحبه فإذا دمى وثب عليه صاحبه فأكله » .

(٤) والبيت للعباس بن مرداس ، وأبو خراشة هو خفاف بن ندبة ، ورواية الحيوان : (أما كنت) ط هارون ٥ / ٢٤ ، وراجع شرح المفصل ط ليبزج ٢ / ١١٨٤ والشعر والشعراء ط شاكر ١ / ٣٠٠ .

جاء الأَسد وأَطاف بهم فجعل عتبة يقول : أَكلنى السبع ، فلما كان فى بعض الليل علا[١] عليه ففدغ رأْسه . وقد يتوسع فى ذلك حتى يجعل العقر أَكلاً وكذلك اللدغ واللسع . أَخبرنا أَبو عمر قال : أَخبرنا أَبو العباس عن ابن الأَعرابى عن أَبى المكارم قال : مررت بمنهال وعلى شفيره صنبور بيده شوشب فقلت لأُمه : أَدركى القامة لا تأْكُلُه الهامة .قال أَبو العباس : الشوشب ، العقرب والقامة الصبى الصغير . وحكى أَيضًا عن بعض الأَعراب أَكلونى البراغيث ؛ فجعل قرص البرغوث أَكلاً . ومثل هذا فى الكلام كثير[٢] .

وأَما قوله سبحانه : ﴿ ونزدَادُ كيْلَ بَعيرٍ ، ذَلِك كيْلٌ يسيرٌ ﴾[٣] فإِن معنى الكيل المقرون بذكر البعير المكيل ،والمصادر توضع موضع الأَسماءِ كقولهم : هذا درهم ضرب الأَمير وهذا ثوبٌ نسج اليمن ، أَى مضروب الأَمير ونسيج اليمن ، والمعنى أَنا نزداد من الميرة المكيلة إذا صحبَنا أَخونا حمل بعير[٤] ؛ فإِنه كان لكل رأْس منهم حمل واحد لا يزيده على ذلك لعزة الطعام ، فكان ذلك فى السنين السبع القحطة ، وكانوا لا يجدون الطعام إلا عنده ولا يتيسر لهم مرامه إِلا من قبله فقيل على هذا المعنى : ﴿ ذلك كيلٌ يَسيرٌ ﴾ أَى متيسر لنا إِذا تسببنا إِلى ذلك باستصحاب أَخينا ، واليسير شائع الاستعمال فيما يسهل من الأُمور كالعسير فيما يتعذر منها ؛ ولذلك قيل يُسِّرَ الرجل إِذا نُتِجَت مواشيه وكثر أَولادها . قال الشاعر :

يَعُدُّ الفتى من نفسه كُلَّ ليلة ... أَصاب غناها مِن صديق مُيَسر[٥]

---

(١) فى « ا » عدا .

(٢) فى « ا » : ومثل هذا الكلام كثير . والأصل ما أثبتناه .

(٣) (يوسف ١٢ / ٦٥) .

(٤) فى الأصل : حمل به بعير ، والظاهر أن (به) زائدة ، وقد حذفت فى (ا) .

(٥) يسر الرجل تيسيراً إذا سهلت ولادة أبله وغنمه ، والغنم لبنها أو نسلها .

وقال آخر[١] :

هما سَيِّدانا يزعمـــان وإنـــا يسودانِنا أَنْ يَسَّرتْ غنمـــاهُما

وقد قيل فى ذلك : كيل يسير أى سريع لا حبس فيه ، وذلك أن القوم كانوا يُحبسون على الباب ، وكان يوسف يقدمهم على غيرهم ؛ وقد قيل إن معنى الكيل هنا السعر . أخبرنى أبو عمر عن أبى العباس قال : والكيْل بمعنى السعر ، كيف الكيل عندكم ؟ أى : كيف السعر ؟ وقد أنشدنا عمرو ابن أَبِى عمرو الشيبانى عن أبيه[٢] :

فإن تَكُ فى كيل اليمامـــة عســـرةٌ فما كيلُ مَيَّافَارِقين[٣] بأَعسَرَا

وأما قوله سبحانه : ﴿ أَنِ امْشُوا واصْبِرُوا على آلهتكم ﴾[٤] وقول من زعم أَنه لو قيل بدله : امضوا وانطلقوا كان أَبلغ ، فليس الأَمر على ما زعمه ، بل المشى فى هذا المحل أَولى وأَشبه بالمعنى ، وذلك لأَنه إنما قصد به الاستمرار على العادة الجارية ولزوم السجية المعهودة فى غير انزعاج منهم ولا انتقال عن الأَمر الأَول ، وذلك أَشبه بالثبات والصبر المأْمور به فى قوله : ﴿ واصْبِرُوا على آلهتكم ﴾ والمعنى كأَنهم قالوا : امشوا على هينتكم وإلى مهوى[٥] أموركم ، ولا تعرجوا على قوله ، ولا تبالوا به . وفى قوله : امضوا وانطلقوا زيادة انزعاج ليس فى قوله امشوا ، والقوم لم يقصدوا ذلك ولم يريدوه ، وقيل : بل المشى هاهنا معناه التوفر فى العدد والاجتماع للنصرة دون المشى الذى هو نقل

---

(١) هو أبو أسيدة الدبيرى كما فى اللسان ط بولاق ٧ / ١٥٩ ، وينشد قبله بيتاً آخر :

إن لنا شيخين لا ينفعاننا غنيين لا يجدى علينا غناهما

(٢) البيت يرويه ياقوت فى معجم البلدان ٨ / ٢١٤ وينسبه إلى بعض الشعراء .

(٣) ميافارقين مدينة بديار بكر . (٤) (ص ٣٨ / ٦) .

(٥) فى « ب » : والزموا .

الأَقدام ، من قول العرب : مشى الرجل إذا كثر ولده . وأَنشدو :

والشاةُ لا تمشى على الهَمَلَّعِ

أَى لا يكثر نتاجها ، والهَمَلَّعُ الذئب .

وأَما قوله سبحانه : ﴿ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَانِيَهْ ﴾ وزعمهم أَن الهلاك لا يستعمل إلا فى تلف الأَعيان فإنهم ما زادوا على أَن عابوا أَفصح الكلام وأَبلغه ، وقد تكون الاستعارة فى بعض المواضع أَبلغ من الحقيقة كقوله عز وجل ﴿ وآيةٌ لهم الليلُ نَسْلَخُ منه النهار ﴾[1] والسلخ هاهنا مستعار وهو أَبلغ منه لو قال نخرج منه النهار وإن كان هو الحقيقة وكذلك قوله سبحانه : ﴿ فاصدع بما تؤمر ﴾ هو أَبلغ من قوله : فاعمل بما تؤمر وإن كان هو الحقيقة ، والصدع مستعار ، وإنما يكون ذلك فى الزجاج ونحوه من فِلِزِّ الأَرض ، ومعناه المبالغة فيما أَمر به حتى يؤثر فى النفوس والقلوب تأْثير الصدع فى الزجاج ونحوه ، وكذلك قوله سبحانه : ﴿ هَلَكَ عَنِّى سُلْطانيه ﴾ وذلك أَن الذهاب قد يكون على مراصدة العود ، وليس مع الهلاك بقيا ولا رجعى ، وقد قيل إن معنى السلطان هاهنا الحجة والبرهان .

وأَما قوله سبحانه : ﴿ وإنه لِحُبِّ الخَيْرِ لَشَدِيد ﴾ وأَن الشديد معناه هاهنا البخيل ، ويقال : رجل شديد ومتشدد أَى بخيل . قال طرفة[2]

أَرى الموتَ يعتَامُ النفوسَ ويَصطفِى ... عَقِيلة مَـالِ الفاحِش المتَشَدِّدِ

واللام فى قوله : ﴿ لحب الخير ﴾ بمعنى لأَجل حب الخير وهو المال لبخيل .

وأَما قوله عز وجل : ﴿ والذين هُمْ للزكاة فاعلون ﴾ وقولهم إن المستعمل فى الزكاة المعروف لها من الأَلفاظ ، كالأَداء والإِيتاء والإِعطاء ، ونحوها كقولك :

---

(١) [يس ٣٦ / ٣٧] .

(٢) من المعلقة راجع ديوان طرفة ص ٣١ ، والعقد الثمين ٥٨ وروايته : يعتام الكرام .

أدى فلان زكاة ماله وآتاها وأعطاها ، أو زكّى ماله ، ولا يقال : فعل فلان الزكاة ، ولا يعرف ذلك فى كلام أحد . فالجواب أن هذه العبارات لا تستوى فى مراد هذه الآية ، وإنما تفيد حصول الأسم فقط ، ولا تزيد على أكثر من الإخبار عن أدائها فحسب ، ومعنى الكلام ومراده المبالغة فى أدائها والمواظبة عليه حتى يكون ذلك صفة لازمة لهم ، فيصير أداءُ الزكاة فعلا لهم مضافًا إليهم يُعرفون به ، فهم له فاعلون . وهذا المعنى لا يستفاد على الكمال إلا بهذه العبارة ، فهى إذًا أولى العبارات وأبلغها فى هذا المعنى . وقد قيل إن معنى الزكاة هنا العمل الصالح الزاكى ، يريد – والله أعلم – والذين هم للأعمال الصالحة والأفعال الزاكية فاعلون .

وأما قوله عز وجل : ﴿ سَيجعلُ لهم الرحْمَنُ وُدًّا ﴾ وإنكارهم قول من يقول جعلت لفلان ودّا بمعنى وددته فإنهم قد غلطوا فى تأويل هذا الكلام ، وذهبوا عن المراد فيه ، وإنما المعنى أن الله سيجعل لهم فى قلوب المؤمنين ، أى يخلق لهم فى صدور المؤمنين مودة ، ويغرس لهم فيها محبة ، كقوله عز وجل : ﴿ واللهُ جَعَل لكُم منْ أَنفُسِكُمْ أَزوَاجًا ﴾(١) أى خلق .

وأما قوله سبحانه : ﴿ رَدِفَ لكم ﴾ فإنهم لغتان فصيحتان : ردفته وردفت له كما تقول : نصحته ونصحت له(٢) . وأما قوله سبحانه : ﴿ ومن يُرِدْ فيه بِإلحادٍ بظُلم ﴾(٣) ودخول الباء فيه فإن هذا الحرف كثيرًا ما يوجد فى كلام العرب الأُول الذى نزل القرآن به ، وإن كان يعز وجوده فى كلام المتأخرين . وأخبرنى الحسن بن عبد الرحيم عن أبى خليفة عن محمد ابن سَلام الجمحى قال : قال أبو عمرو بن العلاء : اللسان الذى نزل به

---

(١) [النحل ١٦ / ٧٢] .

(٢) فى « ب » زيادة (لاينكره عالم باللغة) .

(٣) [الحج ٢٢ / ٢٥] .

القرآن وتكلمت به العرب على عهد النبي صلى الله عليه وسلم عربية أخرى عن[1] كلامنا هذا . وقد زعم بعضهم أن كلام العرب كان باقيًا على نجره الأَول وعلى سنخ طبعه الأَقدم إلى زمان بنى أَمية ثم دخله الخلل فاختل[2] منه أَشياء ، ولذلك قال أَبو عمرو حين أَنشد قول امرىء القيس[3] :

نطعنهم سُلْكَى ومخلوجَةً كرَّكَ لأُمَيْنِ على نابِلِ

ذهب من يحسن هذا الكلام . وأخبرنى أَبو عمر عن أَبى الحسن العباس عمن ذكره أَن أَبا عمرو أَنشد قول الحارث بن حلزة[4] :

زَعَمُوا أَن كلَّ من ضرب العَيْـ رَ مُوالٍ لنا وأَنَّا الولاءُ

فقال : ذهب من يحسن هذا الكلام . قلت : ولهذا صار العلماء لا يحتجون بشعر المحدثين ، ولا يستشهدون به كبشار بن برد ، والحسن بن هانئْ ، ودعبل والعَتَّابى ، وأَحزابهم من فصحاء الشعراء والمتقدمين فى صنعة الشعر ونجره . وإنما يرجعون فى الاستشهاد إلى شعراء الجاهلية وإلى المخضرمين منهم ، وإلى الطبقة الثالثة التى أَدركت المخضرمين ، وذلك لعلمهم بما دخل الكلام فى الزمان المتأَخر من الخلل والاستحالة عن رسمه الأَول . فمن لم يقف على هذه الأَسباب ثم قاس ما جمعه من تلاد الكلام الأَول ، واعتبره بما وجد عليه كلام الأَنشاء[5] المتأَخرين عَىَّ بشىء كثير من الكلام وأَنكره ، وأَما من تبحر فى كلام العرب ، وعرف أَساليبه الواسعة ، ووقف على مذاهبه القديمة فإنه

---

(١) فى « ب » : غير . (٢) فى « ب » : وأحيل .

(٣) ويروى فى اللسان ١٢ / ٣٢٨ : كر كلامين ، قال : وصفه بسرعة الطعن وشبهه ، بمن يدفع الريشة إلى النبال ، وشعراء النصرانية ١٨/١ : لفتك لأمين على النابل ، وقد أثبته (ا) : كسرك الأمين على نابل وهو خطأ .

(٤) البيت من معلقته .

(٥) هذه اللفظة (الأنشاء) غير واضحة ، وقد وردت العبارة فى (ا) « كلام الإنشا من المتأخرين » .

إذا ورد عليه منها ما يخالف المعهود من لغة أهل زمانه لم يسرع إلى النكير فيه والتلحين . أخبرنا أبو عمر عن أبى العباس قال : قال ابن الخطاب : أنحى الناس من لم يُلَحِّن أحدًا . وسمعت ابن أبى هريرة يحكى عن أبى العباس بن سريج قال : سأل رجل بعض العلماء عن قول الله عز وجل : ﴿ لا أُقْسِمُ بِهذا البلد ﴾ [١] فأخبر أنه لا يقسم ثم أقسم به فى قوله : ﴿ والتين والزيتُونِ وطُورِ سِينِينَ وهَذا البَلدِ الأَمِين لقد خلَقْنَا ﴾ [٢] فقال له ابن سريج : أى الأمرين أحب إليك ،أجيبك ثم أقطعك ، أو أقطعك ثم أجيبك ؟ قال : لا بل اقطعنى ثم أجبنى . فقال له : أعلم أن هذا القرآن نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم بحضرة رجال وبين ظهرانى‌قوم كانوا أحرص الخلق على أن يجدوا فيه مغمزًا ، وعليه مطعنًا فلو كان هذا عندهم[٣] مناقضة لتعلقوا به وأسرعوا بالرد عليه ، ولكن القوم علموا وجهلت ، فلم ينكروا منه ما أنكرت ، ثم قال له : إن العرب قد تدخل لا فى أثناء كلامها وتلغى معناها ، كقول الشاعر :

فى بئر لا حُور[٤]سرى وما شَعَرْ

يريد فى بئر حور سرى وما شعر . وأخبرنى أبو عمر عن أبى العباس عن ابن الأعرابى قال : العرب تذكر لا وتلغيه وتضمر لا وتستعمله ، وأنشد فى الأول قوله :

فى بئر لا حور سرى وما شعر

---

(١) [البلد ٩٠/١] . (٢) [التين ٩٥/١ – ٤] .

(٣) سقطت لفظة (عندهم) فى ص .

(٤) حار إلى الشىء وعن الشىء رجع حوراً وحؤوراً ،وقول العجاج فى بئر لاحور سرى وما شعر ، أراد فى بئر لا حؤور فأسكن الواو الأولى وحذفها لسكونها وسكون الثانية بعدها . ولا هنا صلة فى رأى الأزهرى وعند الفراء أنها قائمة صحيحة والمعنى فى بئر ماء لا يحير عليه شيئاً) . راجع اللسان ٥ / ٢٩٦ مادة (حور) .

وفى الآخر قول الشاعر :

أُوصِيكَ أَنْ تَحْمَدَكَ الأَقَارِبُ   أَو يَرجع المسكين وهو خائبُ

يريد أوصيك ألا يرجع المسكين خائبًا .

قلت : فهذا وما أشبهه زيادات حروف فى مواضع من الكلام وحذف حروف فى أماكن أخر منها ، إنما جاءت على نهج لغتهم الأولى قبل أن يدخلها التغيير ، ثم صار المتأخرون إلى ترك استعمالها فى كلامهم . فافهم هذا الباب ، فإنك إذا أحكمت معرفته استفدت علمًا كثيرًا وسقطت عنك مئونة عظيمة وزال عنك ريب القلب ، وتخلصت من شغب الخصم ، ولا قوة إلا بالله .

ونعود إلى الجواب عن قوله سبحانه : ﴿ وَمَنْ يُرِدْ فيهِ بإِلحاد بِظُلْمٍ ﴾ فنقول : قد قيل إن الباء زائدة .

والمعنى : ومن يرد فيه إلحادًا بظلم ، والباء قد تزاد فى مواضع من الكلام ولا يتغير به المعنى .

كقولك : أخذت الشىء وأخذت به ، وكقول الشاعر (1) :

نَضْرِبُ بالسيفِ ونرجُو بالفَرج

وكقول الآخر(2) :

هُنَّ الحرائرُ لا رباتُ أحمرةٍ   سودُ المحاجر لا يقرأْنَ بالسُّوَرِ

يقال : قرأت البقرة ، وقرأت بالبقرة . وقد قرأ غير واحد من القراء : ﴿ تُنْبِتُ بالدُّهْنِ ﴾ بضم التاء منهم ابن كثير وأبو عمرو ، وزعم بعضهم أن

---

(1) من شواهد المغنى ، راجع شرح الشواهد للسيوطى ١١٤ ، وشطره الأول : نحن بنى ضبة أصحاب الفلج .

(2) هو الراعى النميرى (عبيد بن حصين بن معاوية بن جندل) ، من شواهد المغنى ، راجع الشرح ١١٦ . ويروى للقتال الكلبى أيضاً .

معناه تنبت الدهنَ بعضهم تنبت وفيهادهن كما يقال : جاء زيد بالسيف أى جاء ومعه السيف ، وكذلك قوله سبحانه : ﴿ أَوَلم يروا أن الله الذى خَلَق السَّمَاوَاتِ والأَرضَ ولم يَعْىَ بخَلْقهنَّ بقادر . . . ﴾ [١] المعنى قادر على أن يحيي الموتى ، قالوا : وإنما تدخل الباءُ فى هذا المعنى مع حرف الجحد كقوله : ﴿ أليسَ ذلكَ بقادرٍ على أن يحيي الموتى ﴾ [٢] وقد ضارَع أَلم فى معنى الجحد أَليس ، فأُلحق بحكمه ، قالوا : ودخول أَنْ إنما هو توكيد للكلام وَأنشد الفراء فى مثل هذا الباءِ[٣] :

فما رجعت بخائبةٍ ركابٌ حكيمُ بنُ المسيب منتهاهَا

قال : فأَدخل الباءَ[٤] ، قال : وتقول : ما أَظنك بقائم[٥] ، فإذا حذفت الباءَ نصبت الذى كانت فيه بما تُعمل فيه من الفعل .

وأما قوله سبحانه : ﴿ كما أَخرجَك ربُّك من بيتِكَ بالحقِّ . . ﴾ الآية ففيه وجوه ذهب إليها أهل التفسير والتأْويل ، كلها محتملة ، أَيها اعتمدت وعَلَّقْتَ عليه الكاف حملها وصح الكلام عليه . وقال بعضهم أن الله سبحانه أمر رسوله أن يمضى لأَمره فى الغنائم على كره من أَصحابه كما مضى لأَمره فى خروجه من بيته لطلب العير وهم كارهون ، وذلك أَنهم فى يوم بدر اختلفوا فى الأَنفال ، وحاجوا النبي صلى الله عليه وسلم وجادلوه ، فكره كثير منهم ما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النفل ، فأَنزل الله تعالى الآية ، وأَنفذ أَمره فيها ، وأَمرهم أَن يتقوا الله ، وأَن يطيعوه ، ولا يعترضوا عليه فيما يفعله من شيء فيما بعد إن كانوا مؤمنين ، ووصف المؤمنين ثم قال :

---

(١) [الأحقاف ٤٦/٣٣] . (٢) [القيامة ٧٥/٤٠] .
(٣) راجع شرح شواهد المغنى ١١٧ .
(٤) فى « ب » : قال : فأدخل الباء فى فعل لو ألغيت منه نصب بالفعل لا بالباء .
(٥) فى « ب » : ما أظنك بقائم ، وما أظن أنك قائم .

﴿ كما أَخرجَك ربُّك من بيتِك بالحَقِّ وإنَّ فريقًا من المؤمِنين لكارِهُون ﴾ ، يريد أن كراهتهم لما فعلته فى الغنائم ككراهتهم فى الخروج معك وقد حمدوا عاقبته فليصبروا[1] فى هذا وليسلِّموا ويحمدوا عاقبته كذلك . وقيل معناه : أُولئكَ هُم المؤمِنُونَ حقًّا كما أَخرجَكَ ربُّكَ مِنْ بيتِكَ بالحَقِّ كقوله : ﴿ فَوربِّ السماءِ والأَرْضِ إنه لحقٌّ مِثلَ ما أنكم تَنْطِقُونَ ﴾[2] . وقيل «كما»[3] صفة لفعل مضمر وأن تأويله : افعل فى الغنائم كما فعلت فى الخروج إلى بدر وإن كره القوم ذلك ، كقوله سبحانه : ﴿ كما أَرسلنَا فِيكُمْ رُسولاً مِنكُم ﴾ معناه : « كما أنعمنا عليكم بإرسال رسول فيكم من أنفسكم كذلك أُتم نعمتى عليكم » .

وأما قوله سبحانه : ﴿ كما أَنزلْنَا على المقْتَسِمِينَ ﴾[4] فإن فيه محذوفًا يدل ظاهر الكلام عليه ؛ كأنه قال : أَنا النذير المبين عقوبة أَو عذابًا ، كما أَنزلنا ، أَى مثل ما أَنزلنا على المقتسمين الذين جعلوا القرآن عِضين . فإن قيل : أَو ليس وإن توجه الكلام وصح على الوجه الذى ذكرتمود فى معنى قوله سبحانه : (كما أَخرجَكَ ربُّكَ من بيتِكَ بالحقِّ) فقد دخله من الانتشار بتفرق أَجزائه وتباعد ما بين فصوله ما أَخرجه من حسن[5] النظم الذى وصفتموه به ؟ قيل : لا ، وذلك لأَنه لم يدخل بينه وبين أَول ما يتصل به إنما قال : ﴿ وأَطِيعُوا الله وَرَسُولَهُ إن كنتم مؤمنين ﴾ ثم وصف هذا الإيمان وحقيقته إذ كان هذا القسم يقع على أَمر ذى شعب وأَجزاء ، يلزم أَدناه من ذلك ما يلزم أَقصاه ، فلو لم يستوفه بالصفة الجامعة له[6] لم يبن معه المراد ، ثم عطف

---

(١) سقطت من (ا) العبارة : « فليصبروا فى هذا وليسلموا ويحمدوا عاقبته » .

(٢) [الذاريات ٥١ / ٢٣] .

(٣) فى الأصل « ما كان » وصححناها كتصحيح (ا) « كما » ، فى « ب » (الكاف)

(٤) (الحجر ١٥ / ٩٠) . (٥) فى « ب » من جنس . (٦) فى (ا) معه .

بالكلام على أول الفصل فقال : ﴿ كما أخرجَكَ ربُّكَ من بيتكَ بالحقِّ و إنَّ فريقًا من المؤمنين لكارهُون ﴾ . فشبه كراهتهم ما جرى فى أمر الأنفال وقسمها بالكراهة فى مخرجه من بيته ، وكل مالا يتم الكلام إلا به من صفة وصلة فهو كنفس الكلام . فإن قيل : فما معنى قوله : ﴿ لا تُحرِّكْ به لِسَانَكَ لتَعْجَلَ به ﴾ الآية ؟ . وقد اكتنفه من جانبيه قوله سبحانه : ﴿ بل الإنسان على نفسِه بصيرة ولو ألقى معاذيره ﴾ وقوله : ﴿ كلاَّ بَلْ تحبون العاجلَة وتذرونَ الآخِرةَ ﴾ . ولا مناسبة بين الكلامين اللذين اعتوراه . قيل هذا عارض من حال دعت الحاجةُ إلى ذكره ، لم يجز تركه ولا تأْخيره عن وقته ، كقولك للرجل وأنت تحدثه بحديث فيشتغل عنك ويقبل على شيء آخر ــ أقبل علىّ واسمع ما أقول ، وافهم عنى ، ونحو هذا من الكلام ، ثم تصل حديثك ولا تكون بذلك خارجًا عن الكلام الأول قاطعًا له ، إنما تكون به مستوصلاً للكلام مستعيدًا له . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أميًّا لا يقرأ ولا يكتب وكان إذا نزل الوحى وسمع القرآن حرك لسانه يستذكر به ، فقيل له : تفهمْ ما يوحى إليك ولا تتقلبه[1] بلسانك ، فإنا نجمعه لك ونحفظه عليك . أخبرنا الأصم قال نا أبو أمية الطرسوسى قال : حدثنى عبيد الله بن موسى قال[2] : حدثنى إسرائيل عن أبى إسحق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله سبحانه : ﴿ لا تُحرِّكْ بهِ لِسَانك لتَعْجَلَ بهِ ﴾ قال : كان يُحركُ بِهِ لِسَانَهُ مخَافَةَ أن يتفلت منه .

وأما ما عابوه من الحذف والاختصار فى قوله سبحانه : ﴿ ولو أنَّ قرآنًا سُيِّرت به الجبالُ أو قُطِّعَتْ به الأَرْضُ أو كُلِّمَ به الموتى ﴾ فإن الإيجاز فى

---

(١) فى « ب » تتقلبه .

(٢) فى « ب » : اخبرنا الأصم قال حدثنى أبو أمية الطرسوسى قال حدثنى إسرائيل . . .

موضعه . وحذف ما يستغنى عنه من الكلام نوع من أنواع البلاغة ، وإنما جاز حذف الجواب فى ذلك وحسن لأن المذكور منه يدل على المحذوف والمسكوت عنه من جوابه ، لأن المعقول من الخطاب عند أهل الفهم كالمنطوق به ، والمعنى : لو أن قرآنًا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى لكان هذا القرآن . وقد قيل : إن الحذف فى مثل هذا أبلغ من الذكر لأن النفس تذهب فى الحذف كل مذهب ، ولو ذكر الجوابُ لكان مقصورًا على الوجه الذى تناوله الذكر . فحذف الجواب كقوله : لو رأيت عليًّا بين الصفين ! وهذا أبلغ من الذكر لما وصفنا . وكذلك قوله سبحانه : ﴿ وسيقَ الذينَ اتقوا رَبَّهُم إلى الجنة زُمَرًا حتى إذا جاءُوها وفتحت أبوابها . . ﴾ الآية والمعنى كأنه قيل : لما دخلوها حصلوا على النعيم المقيم الذى لا انقطاع له ولا تكدير[1] فيه .

وأما ما عابوه من التكرار ؛ فإن تكرر الكلام على ضربين : أحدهما مذموم وهو ما كان مستغنى عنه ، غير مستفاد به زيادة معنى لم يستفيدوه بالكلام الأول ، لأنه حينئذ يكون فضلاً من القول ولغوًا . وليس فى القرآن شىء من هذا النوع .

والضرب الآخر ما كان بخلاف هذه الصفة ، فإن ترك التكرار فى الموضع الذى يقتضيه ، وتدعو الحاجة إليه فيه ، بإزاء تكلف الزيادة فى وقت الحاجة إلى الحذف والاختصار ، وإنما يحتاج إليه ويحسن استعماله فى الأمور المهمة التى قد تعظم العناية بها ويخاف بتركه وقوع الغلط والنسيان فيها والاستهانة بقدرها . وقد يقول الرجل لصاحبه فى الحث والتحريض على العمل : عَجل

---

(١) فى « ب » (تصريد) والتصريد فى اللسان سقى دون الرى ، أو شرب دون الرى .

عجل ، وارم ارم ، كما يكتب فى الأمور المهمّة على ظهور الكتب : مُهم مهم مهم ، ونحوها من الأمور . وكقول الشاعر[١] :

هَــلَّا سأَلْتَ جُمــوعَ كِنْ　　　دَةَ يــومَ وَلَّوا أَيْن أَيْنَــا

وقول الآخر[٢] :

يال بكرٍ أَنشِروا لى كُلَيْبًا　　　يال بكرٍ أَيْــنَ أَيْــنَ الفــرارُ

وقد أَخبر الله عز وجل بالسبب الذى من أَجله كرر الأَقاصيص والأَخبار فى القرآن فقال سبحانه : ﴿ وَلقد وَصلنا لَهُم القولَ لعلَّهم يتذكرون ﴾[٣] وَقال تعالى : ﴿ وَصرَّفنَا فِيه من الوعيد لعلهم يتقون أَو يُحدثُ لهم ذِكرًا ﴾[٤] وأَما سورة الرحمن فإن الله سبحانه خاطب بها الثقلين من الإِنس والجن ، وعدد عليهم أَنواع نعمه التى خلقها لهم ؛ فكلما ذكر فصلاً من فصول النعم جدد إقرارهم به واقتضاءهم الشكر عليه ، وهى أَنواع مختلفة وفنون شتّى ، وكذلك هو فى سورة « المرسلات » ذكر أَحوال يوم القيامة وأَهوالها فقدم الوعيد فيها وجدد القول عند ذكر كل حال من أَحوالها لتكون أَبلغ فى القرآن وأَوكد لإِقامة الحجة والإِعذار ، ومواقع البلاغة معتبرة لمواضعها من الحاجة . فإن قيل : إذا كان المعنى فى تكرير قوله : ﴿ فبأَى آلاءِ ربكما تكذبان ﴾ تجديد ذكر النعم فى هذه السورة واقتضاء الشكر عليها ، فما معنى قوله : ﴿ يرسَلُ علَيكُما شواظٌ من نارٍ ونحاسٌ فلا تنتصران ﴾[٥] ثم أَتبعه قوله : ﴿ فبأَىِّ آلاءِ ربكما تكذِّبانِ ﴾ وأَى موضع نعمة هاهنا ؟ وهو إنما يتوعدهم

---

(١) ينسب إلى عبيد بن الأبرص ، راجع ديوان عبيد ص ٢٨ ط أوربا والصناعتين ط البجاوى وأبو الفضل سنة ١٩٥٢ م ص ١٩٤ .

(٢) هو مهلهل ربيعة راجع الأغانى ط دار الكتب ٥/٥٩ .

(٣) [القصص ٢٨/٥١] .　(٤) [طه ٢٠/١١٣] .　(٥) [الرحمن ٥٥/٣٥]

بلهب السعير والدخان المستطير .. قيل إن نعمة الله تعالى فيما أنذر به وحذر من عقوباته على معاصيه ليحذروها فيرتدعوا عنها بإزاء نعمه على ما وعد وبشّر من ثوابه على طاعته ليرغبوا [١] فيها ويحرصوا عليها . وإنما تُحقّق معرفةُ الشيء بأَن يُعْتبر بضِدّه ليوقف على حده .

والوعد والوعيد وإن تقابلا فى ذواتهما فإنهما متوازيان فى موضع النعم بالتوقيف على مآل أمرهما والإبانة على عواقب مصيرهما ، وعلى هذا ما قاله بعض حكماء الشعراء :

والحادثاتُ وإنْ أَصَابَكَ بُؤْسُها فهُو الَّذِى أَنْباكَ كيف نَعيمُها

وأما قولهم : لو كان نزول القرآن على سبيل التفصيل والتقسيم ، فيكون لكل نوع من أَنواع علومه حَيِّز وقبيل ، لكان أَحسن نظمًا وأَكثر فائدة ونفعًا فالجواب : أنه إنما نزل القرآن على هذه الصفة من جمع أَشياءَ مختلفة المعانى فى السورة الواحدة وفى الآية المجموعة القليلة العدد لتكون أكثر لفائدته وأعم لنفعه . ولوكان لكل باب منه قبيل ، ولكل معنى سورة مفردة لم تكثر عائدته ، ولكان الواحد من الكفار [٢] والمعاندين المنكرين له إذا سمع السورة منه لا تقوم عليه [٣] الحجة به إلا فى النوع الواحد الذى تضمنته السورة الواحدة فقط ، فكان اجتماع المعانى الكثيرة فى السورة الواحدة أَوفر حظًّا وأَجدى نفعًا من التمييز والتفريد للمعنى الذى ذكرناه . والله أَعلم .

وقد أَحب الله عز وجل أَن يمتحن عباده ويبلو طاعتهم واجتهادهم فى جمع المتفرق منه ، وفى تنزيله وترتيبه ، وليرفع الله الذين آمنوا منهم والذين أُوتوا العلم درجات .

---

(١) فى (ا) فيرغبوا وهو خطأ . (٢) فى « ب » : المتكبرين .

(٣) فى الأصل علينا وقد صححنا « عليه » وكذلك صححه (ا) .

فإن قيل ما أنكرتم أن القوم قد عارضوه ولكنه [١] لم ينقل إلينا وغيِّب عنا ذكره ، وكتم الخبر فيه لما اتسع الإسلام وخافوا على أنفسهم ، فانقطع رسمه وامحى أثره .قيل :هذا سؤال ساقط. ،والأمر فيه خارج عما جرت به عادات الناس ، خواصهم وعوامهم من نقل الأخبار ،والتحدث بالأمور التى لها شأن ، وبالنفوس تعلق ، ولها فيها وقع . وكيف يجوز ذلك عليهم فى مثل هذا الأمر العظيم الذى قد انزعجت له القلوب وسار ذكره بين الخافقين ! ولو جاز ذلك فى مثل هذا الشأن مع عظيم خطره وجلالة قدره لجاز أن يكون قد خرج فى ذلك العصر نبي آخر ، وأنبياء ذوو عدد ، وتنزلت عليهم كتب من السماء ، وجاءوا بشرائع مخالفة لهذه الشريعة ، وكتم الخبر فيها فلم يظهر . وهذا ما لا يتوهم أن يكون لخروجه من سوم الطباع ومجارى العادات ، فكذلك ما سألونا عنه .

فإن قيل : ما أنكرتم أن المعارضة قد حصلت منهم لبعضه ، وهو ما بلغ مقداره عدد الآى من بعض السور القصار ، نحو ما حكى عن مسيلمة من قوله : «يا ضفدع نقى كم تنقين ، لا الماء تكدرين ولا الوارد تنفرين» وكما حكى عن بعضهم من قوله : « ألم تر إلى ربك كيف فعل بالحبلى ، أخرج منها نسمة تسعى ، بين شراسيف وحشى » ن وكما قال آخر منهم : « الفيل ، وما الفيل ، وما أدراك ما الفيل . له مشفر طويل ، وذنب أثيل ، وما ذاك من خلق ربنا بقليل » .

قيل : أما قول مسيلمة فى الضفدع فمعلوم أنه كلام خال من كل فائدة ،

(١) علق (أ) على هذه العبارة بهامش جاء فيه : (كذا بالأصل ، وفى العبارة حذف ، تقديره : حاصل ، أو واقع ، ولكنه لم ينقل إلينا . . . إلخ) ، وعبارة الأصل مستقيمة لا تحتاج إلى مثل هذا التقدير ولفظة « ما » فيها نافية وليست موصولة .

لا لفظه صحيح ، ولا معناه مستقيم ، ولا فيه شيء من الشرائط الثلاث التى هى أركان البلاغة ، وإنما تكلف هذا الكلام الغث لأجل مافيه من السجع . والساجع عادته أن يجعل المعانى تابعة لسجعه ، ولا يبالى بما يتكلم به إذا استوت أساجيعه واطردت .

ولخلو هذا الكلام من كل نوع من الفوائد قال أبو بكر رضى الله عنه حين طرقت[1] سمعه : أشهد أن هذا الكلام لم يخرج من بال . وأخبرنى ابن الفارسى محمد بن القاسم بن الحكم قال : أخبرنى أبى قال أخبرنى إبراهيم بن هانئ قال : أخبرنى يحيي بن بكير قال : أخبرنى الليث بن سعد عن خالد بن يزيد عن سعيد بن أبى هلال عن سعيد بن نشيط قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن العاص إلى البحرين ، فتوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمرو ثَمَّ . قال عمرو : فأقبلت حتى مررت على مسيلمة فأعطانى الأمان ثم قال : إن محمدًا أرسل فى جسيم الأُمور وأرسلت فى المحقرات . فقلت : أعرض على ما تقول . فقال : «ياضفدع نقى فإنك نعم ما تنقين . لا واردًا تنفرين ، ولا ماءً تكدرين ، يا وَبْرُ يا وَبْرُ ،[2] يدان وصدر ، وسائرك حضر[3] نفر» . ثم أتى أناس يختصمون إليه فى نخل قطعها[4] بعضُهم لبعض فتسَجَّى بقطيفة ثم كشف رأسه فقال : « والليل الأَدهم ، والذئب الأَسحم ، ما جاءَ بنو أَبى مسلم من مَحْرَمْ » ثم تسجَّى الثانية فقال : « والليل الدامس ، والذئب الهامس ، ما حرمته رطبًا إلا كحرمته يابس ، قوموا فلا أَرى عليكم فيما صنعتم شيئًا » . قال : قال عمرو :أَما والله إنك تعلم وإنا

(١) فى (ا) : طرق .
(٢) الوبر دويبة كالسنور.
(٣) ذكر (ا) أن ابن كثير أورد هذه القصة وفيها : وسيرك حفر ونقر ، وفى (ب) : وساترك حقر نقر .
(٤) فى الأصل : أقطعها .

لنعلم أنك من الكاذبين . فتوعدنى .

قلت : صدق عمرو . هل يخالج أحدًا شك فى ضلالة من هذا سبيله ، وسقوط من هذا برهانه ودليله ؟ ! . وأى بلاغة فى هذا الكلام ؟ ، وأى معنى تحته ، وأى حكمة فيه حتى يتوهم أن فيه معارضة للقرآن ، أو مباراة له على وجه من الوجوه ؟ . ولكن البائس أعلم بنفسه حين يقول : أرسلت فى المحقرات ، ولا يراد [1] أحقر مما جاء به وأقل . ولعل بعض ما جاء به أبو الينبعى [2] ، وأبو العَبْر ، والطرمىّ وأضرابهم من السخافات أشف منه وأخف على السمع . وما أشبه الأمر فى هذا بما حكى لنا عن أبى عمرو بن العلاء : حدثنى محمد ابن الحسين بن عاصم قال : حدثنى محمد بن الصباح المازنى قال : حدثنى عبد الله بن الهيثم حدثنا الأصمعى قال : أنشد رجل أبا عمرو بن العلاء شعرًا رديئًا فقال : هذا شبه شعر فلان :

حـــدارجــا حدارجا سبعين فرخــا دارجـــا

قال : وأنشد رجل آخر شعرًا رديئًا فهًّا [3] فقال : هذا يشبه شعر بشار [4] :

حبـــابــة ربـــة البيت تصب الخل فى الـــزيت
لهـــا سبع دجـــاجـــات وديك حسن الصـــوت

وأما قول الآخر : الفيل وما الفيل وما أدراك ما الفيل ، وقول صاحب [5] ألم تر إلى ربك كيف فعل بالحبلى . . . فإن كل واحد من هذين الكلامين مع قصور آيه [6] ، وقصر معانيه خال من أوصاف المعارضات وشروطها ، وإنما

(١) فى (ب) : ولايرى . (٢) وهو رجل هازل خليع .
(٣) فى الأصل فيها وقد قرأها (ا) تفيها وصوبناها فها ومعناها عيياً .
(٤) البيتان فى الأغانى ط دار الكتب ١٦٣/٣ ورواية البيت الأول : ربابة ربة البيت .
(٥) قرأها (ا) «صاحبة» والأصل أصح .
(٦) الأصل واضح كما أثبتناه ولكن (ا) قرأها « رأيه » .

هو استراق واقتطاع من عرض كلام القرآن واحتذاء لبعض أمثلة نظومه ، وكلا لن يبلغوا شأوه أو يصيبوا فى شىء من ذلك حذوه

وسبيل من عارض صاحبه فى خطبة أو شعر أن ينشئ له كلامًا جديدًا ويحدث له معنى بديعًا ،فيجاريه فى لفظه ويباريه فى معناه ليوازن بين الكلامين فيحكم بالفلج لمن أبر[1] منهما على صاحبه ، وليس بأن يتحيف من أطراف كلام خصمه فينسف منه ثم يبدل كلمة مكان كلمة فيصل بعضه ببعض وصل ترقيع وتلفيق ، ثم يزعم أنه قد واقفه موقف المعارضين وإنما المعارضة على أحد وجوه :

منها أن يتبارى الرجلان فى شعر أو خطبة أو محاورة فيأتى كل واحد منهما بأمر محدث من وصف ماتنازعاه ، وبيان ماتباريا فيه يوازى بذلك صاحبه أو يزيد عليه ، فيفصل الحكم عند ذلك بينهما بما يوجبه النظر من التساوى والتفاضل ، نحو ما تنازعه امرؤ القيس وعلقمة بن عبدة من وصف الفرس فى قصيدتيهما المشهورتين ، فافتتح امرؤ القيس قصيدته بقوله[2] :

خلِيلَىَّ مُرَّا بِى على أُمِّ جُنْدبِ

فلما صَارَ إلى ذكر الفرس وسرعة ركضه قال :

فللزجر أُلهوبٌ وللسَّاقِ دِرةٌ ... وللسَّوطِ منه وقْعُ أَهوجَ مُنْعِبِ[3]

(١) فى (ب) : أربى .

(٢) راجع القصة والأبيات فى شرح ديوان أمرئ القيس لأبى بكر عاصم بن أيوب ط هندية سنة ١٣٢٤ ه ص ٧٢ والموشح للمرزبانى ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ وبروايات مختلفة .

(٣) هكذا فى الأصل ويروى وقع أخرج مهذب وكذا فى (ا) : والأخرج الظليم وهو ذكر النعام ، ومهذب مسرع فى عدوه . وفى الديوان البيت :

فللساق ألهوب وللسوط درة ... وللزجر منه وقع أهوج منعب

والأهوج الأحمق ، والهوجاء السريعة ، والمنعب الذى يستعين بنعقه .

وابتدأ علقمة قصيدته بقوله [١] :

ذهبْتَ مِنَ الهجْرانِ فى غيرِ مَذْهَبِ

فلما صار إلى ذكر الفرس وركضه قال :

فعَفَّى على آثارهِنَّ بحاصِبٍ وغيبةِ شؤبوبٍ من الشَّد ملهبِ
فأَدْرَكهُنَّ ثانيًا من عنانه يمرُّ كمرِّ الرائح المتحَلِّبِ [٢]

وكانا قد حكَّما بينهما امرأة امرئ القيس ، فقالت لزوجها : علقمةُ أشعر منك ، فقال : وكيف ذلك ؟ قالت :لأَنه وصف الفرس بأَنه أدرك [٣] الطريدة من غير أن يجهده أو يكده ، وأَنت مريت فرسك بالزجر وشدة التحريك والضرب ، فغضب عند ذلك وطلقها .

ونحو هذا معارضة الحارث بن التوأَم اليشكرى إياه فى إجازة أَبيات : أَخبرنى محمد بن الحسين بن عاصم قال أَخبرنى محمد بن الصباح المازنى قال: أَخبرنى عبيد الله بن محمد الحنفى قال أَخبرنى محمد بن سلام عن أَبى عبيدة عن أَبى عمرو بن العلاء قال : كان امرؤ القيس ينازع كل من قيل إنه يقول شعرًا ، فنازع الحارث بن التوءم ، فقال امرؤ القيس [٤] :

أَحارِ ترى بُرَيْقًا هَبَّ وهنًا

---

(١) القصيدة فى ديوان علقمة ضمن مجموعة دواوين خمسة ص ١٣٣ .

(٢) نفس المصدر السابق ١٣٤ ورواية الشطر : يمر كمر رائح متحلب .

(٣) العبارة غير واضحة فى الأصل وتصحيحها من « ب » وهى فى المصدر واضحة (راجع مثلا الموشح ص ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠) . فقالت لامرئ القيس : هو أشعر منك، رأيتك ضربت فرسك بسوطك وحركته بساقك ورأيته أدرك الصيد ثانياً من عنانه .

(٤) راجع شرح ديوان امرئ القيس ص ١٦٦ وما بعدها والعقد الثمين ١٣٢ ، شعراء النصرانية ١ / ١٠ — ١١ والعمدة ١ / ١٣٥ ط سنة ١٩٢٥ هـ ، واسم الشاعر فى العمدة الحارث ابن قتادة وكنيته التوءم اليشكرى .

فقال الحارث :

كنار مَجُوسَ تَستعِرُ استِعَارا

فقال امرؤ القيس :

أَرِقْتُ لهُ ونام أَبُو شُريحٍ

فقال الحارث :

إذا ما قُلْتُ قد هَدأَ اسْتَطَارَا

فقال امرؤ القيس :

فمرّ بجانبِ العبلات منه[1]

فقال الحارث :

وبات يحتفر الأَكم احتفارا[2]

فقال امرؤ القيس :

فلم يترك ببطن السِّى ظبيًا[3]

فقال الحارث :

ولم يترك بعرصتها حمارا[4]

فقال امرؤ القيس :

كأَنَّ هَزيزَهُ بوَراءِ غَيْب

قال الحارث :

عشارٌ وُلَّهٌ لاقت عشارا

---

(١) هذا البيت غير موجود بالديوان .

(٢) هكذا الشطر فى الأصل وهو غير واضح ومختل .

(٣) رواية الديوان : فلم يترك بذات السر وهو موضع .

(٤) رواية الديوان : ولم يترك بجلهتها ، وكذا فى العمدة ١ / ١٣٥ .

فقال امرؤ القيس :

فلما أَن علا شرجى أُضاخٍ[١]

قال الحارث :

وَهَتْ أَعجاز ريِّقه فخارا

قال امرؤ القيس :

فلم تر مثلنا ملكًا همامًا[٢]

قال الحارث :

ولم تر مثل هذا الجار جارا

قال : فآلى امرؤ القيس أَلا يناقض بعده شاعرًا . قال محمد بن سلام فى غير هذه الرواية : فلما رآه امرؤ القيس قد ماتنه ، ولم يكن فى ذلك الدهر شاعر يماتنه آلى أَلا ينازع الشعر بعده أَحدًا .

قلت : هذه مباراة عجيبة ، ومعارضة تامة مستوفاة فصلاً فصلاً ، ومصراعًا مصراعًا ، وللحارث فيها ما ليس لامرئ القيس لأَن المبتدئ ، متمكن من الاختيار موسع عليه[٣] الطرق يسلك أَيها شاءَ ، والمجيز مقصور القيد ممنوع من التصرف إلا فى الجهة التى هو بإِزائها فلذلك قد أَبر عليه الحرث من التصرف إلا فى الجهة التى هو بإِزائها فلذلك قد أَبر عليه الحارث لماجاءَ[٤] من حسن التشبيه والتمثيل الذى خلا منه كلام امرئ القيس ، ولأَجل ذلك آلى امرؤ القيس أَلا يماتن شاعراً بعده .

---

(١) رواية الديوان : فلما أن دنا لقفا أضاخ ، وشعراء النصرانية : كنفى أضاخ ١ / ١١ والعمدة ١ / ١٣٥ وأضاخ موضع ، وفى الأصل أضاح وكذلك فى (ا) ، ولم نعثر عليها .

(٢) هذا السطر والذى يليه ليسا فى الديوان .

(٣) زاد (ا) هنا (فى) فأصبحت العباره موسع عليه فى الطرق .

(٤) زاد (ا) (به) والعباره بدونها مستقيمة .

وقد رُوى لنا أَن الوليد بن عبد الملك وأَخاه مسلمة تنازعا ذكر الليل وطوله ، ففضل الوليد أَبيات النابغة فى وصف الليل ، وفضل مسلمة أَبيات امرئ القيس ؛ فحكَّما الشعبى بينهما ، فقال الشعبى : تُنشدُ الأَبيات وأَسمع ، فأُنشد للنابغة [1] :

كلينى لِهمٍّ يا أُميمة ناصِبِ ‏ ‏ ‏ وليلٍ أُقاسِيه بطئ الكواكِبِ

تطاوَلَ حتى قلت ليس بمُنْقضٍ ‏ ‏ ‏ وليْسَ الذى يرعى النجوم بآيبِ

بصَدْرٍ أَراح الليل عازبَ هَمِّه ‏ ‏ ‏ تضاعف فيه الحزن من كل جانبِ

ثم أُنشد لامرئ القيس :

وليلٍ كموجِ البحر أَرْخى سُدُوله ‏ ‏ ‏ علىَّ بأَنواعِ الهمومِ ليبتَلِى

فقلتُ لهُ لما تمطَّى بصُلْبِه ‏ ‏ ‏ وأَردف أَعجازًا وناءَ بكلكلِ

أَلاَ أَيُّها الليلُ الطويلُ أَلا انجلى ‏ ‏ ‏ بصُبْحٍ وما الإِصباحُ مِنْكَ بأَمْثَلِ

فيالك من ليل كأَن نجومَهُ ‏ ‏ ‏ بكُلِّ مُغار الفتل شُدَّتْ بيَذْبُلِ

قال فركض الوليد برجله ، فقال الشعبى : بانت القضية .

قلت : افتتاح النابغة قصيدته بقوله [2] :

كِلينى لهمٍّ يا أُميمة ناصِبِ

متناه فى الحسن ، بليغ فى وصف ما شكاه ، من هَمِّهِ وطول ليله . ويقال إنه لم يبتدئ شاعر قصيدة بأَحسن من هذا الكلام . وقوله :

وصَدْرٍ أَراح الليلُ عازبَ هَمِّه

---

(١) الأبيات من القصيده المشهورة للنابغة التى يعتذر فيها للنعمان ، راجع الديوان ط مصر ص ٤٢ ، والعقد الثمين ٢ .

(٢) ديوان امرئ القيس ٣٦ ، والعقد الثمين ١٤٨ .

مستعارٌ من إراحة الراعى الإبل إلى مباتها ، وهو كلام مطبوع سهل يجمع البلاغة والعذوبة ؛ إلا أن فى أبيات امرئ القيس من ثقافة الصنعة وحسن التشبيه وإبداع المعانى ما ليس فى أبيات النابغة ، إذ جعل لليل صلبًا وأعجازًا وكلكلا ، وشبه تراكم ظلمة الليل بموج البحر فى تلاطمه عند ركوب بعضه بعضاً حالا على حال ، وجعل النجوم كأنها مشدودة بحبال وثيقة فهى راكدة لا تزول ولا تبرح ، ثم لم يقتصر على ما وصف من هذه الأمور حتى عللها بالبلوى ونبه فيها على المعنى ، وجعل يتمنى تصرم الليل بعود الصبح لما يرجو فيه من الروح ، ثم ارتَجَعَ ما أعطى واستدرك ما كان قدمه وأمضاه ، فزعم أن البلوى أعظم من أن يكون لها فى شىء من الأوقات كشف وانجلاء ، والمحنة فيها أعلظ من أن يوجد لدائها فى حال من الأحوال دواء وشفاء ، وهذه الأمور لا يتفق مجموعها فى اليسير من الكلام إلا لمثله من المبرزين فى الشعر الحائزين فيه قصب السبق ، ولأجل ذلك كان يركض الوليد برجله إذ لم يتمالك أن يعترف له بفضله .

فبمثل هذه الأمور تعتبر معانى المعارضة فيقع بها الفصل بين الكلامين من تقديم لأحدهما أو تأخير أو تسوية بينهما[١] .

وقد يتنازع الشاعران معنى واحدًا فيرتقى أحدهما إلى ذروته ويقصر شأو الآخر عن مساواته فى درجته ، كالأعشى والأخطل حين انتزعا[٢]

---

(١) فى مثل هذا التحليل يبدو الذوق الفنى عند الخطابى وتتضح الصلة بين دراسات أسلوب القرآن ودراسات النقد الأدبى ، ويلاحظ أن الباقلانى قد تناول أيضاً معلقة امرئ القيس بالتحليل فى معرض الاحتجاج لبلاغة القرآن .

(٢) فى (ا) ، « ب » اقترعا ، وقراءة الأصل أشبه بالسياق .

فى وصف الخمر على معنى واحد فكان لأحدهما العلو ، وكان للآخر السفل.

أخبرنى أبو رجاء الغنوى قال : أخبرنى أبى قال : أخبرنى عبد الله بن أبى سعد قال : حدثنى أبو غسان مالك بن غسان المسمعى قال : حدثنى هشام ابن أدهم المازنى — وكان علامة — قال : دخل الشعبى على الأخطل فوجده ثملاً وحوله لخالخ[1] ورياحين ، فقال : ياشعبى فعل الأخطل وذكر أمهات الشعراء ، فقال الشعبى : بماذا يا أبا مالك ؟ قال : بقوله :

وتظَلُّ تُنْصِفُنَا بِهَا قَرَوِيَّةٌ　　إبريقها بِرِقَاعِهِ مَلْثُومُ [2]

فإذا تعاورت الأكفُّ زجاجَها　　نفحتْ فَنال رياحها المزكومُ

فقال الشعبى : أشعر منك الذى يقول [3] :

وأدكن عاتقٍ جحلٍ سِبْحلٍ[4]　　صَبَحْتُ براحِهِ شَرْبًا كِراما

من اللائى حُمِلْنَ على الروايا　　كريح المسك تَسْتَلُّ الزكامَا

فقال له الأخطل : من يقول هذا ياشعبى؟ . قال : الأعشى . قال : قُدُّوس قدوس ، فعل الأعشى ، وذكر أمهات الشعراءِ . فتأمل أين منزلة أحدهما من الآخر ، لم يزد الأخطل حين احتشد وافتخر على أن جعل رائحتها لذكائها تنفذ حتى تخلص إلى الرأس فينالها المزكوم ، وجعلها الأعشى لحدتها وفرط ذكائها مستلَّة للزكام طاردة له ، قد طَبَّت لدائه وتأتَّت لبرئه وشفائه .

---

(١) اللخالخ نوع من الطيب .

(٢) راجع شعر الأخطل ط صالحانى بيروت سنة ١٩٠٥ م ص ٨٥ ورواية البيت (برقاعها ملثوم) .

(٣) ديوان الأعشى ط R, Geyer سنة ١٩٢٨ ص ١٣٥

(٤) السبحل الضخم .

وأعجب من هذا فى المعارضات ، وأبلغ منه فى مذاهب المقابلات والمناقضات بناء الشىء وهدمه ، وتشييده ثم وضعه ونقضه ، كقول حسان بن ثابت . أخبرنى أبو رجاء قال : حدثنى أبى قال : حدثنى عمر بن شبة قال : حدثنى هارون بن عبد الله الزبيرى قال : حدثنى يوسف بن عبد الله الماجشون عن أبيه قال : قال حسان : أتيت جبلة بن الأيهم الغسانى وقد مدحته فقال لى : يا أبا الوليد إن الخمر قد شغفتنى فاذممها لعلى أرفضها فقلت :

ولولا ثلاثٌ هن فى الكأس لم يكن ... لها ثمن من شاربٍ حين يشربُ
لها نزقٌ مثل الجنون ومصرعٌ ... دنِيٌّ وأن العقل ينأى ويَعزُبُ

فقال : أفسدتها فحسنها ، فقلت :

ولولا ثلاثٌ هن فى الكأس أصبحتْ ... كأنفسِ مال يستفاد ويطلبُ
أمانيُّها والنفس يظهر طيبُها ... على حزنها والهم يُسلى فيذهبُ

فقال : لا جرم . والله لا تركتها أبدًا .

قلت : وها هنا وجه آخر يدخل فى هذا الباب ، وليس بمحض المعارضة ، ولكنه نوع من الموازنة بين المعارضة والمقابلة ، وهو أن يجرى أحد الشاعرين فى أسلوب من أساليب الكلام وواد من أوديته ، فيكون أحدهما أبلغ فى وصف ما كان من باله من الآخر فى نعت ما هو بإزائه ، وذلك مثل أن يُتأمل شعر أبى دؤاد الإيادى والنابغة الجعدى فى صفة الخيل ، وشعر الأعشى والأخطل فى نعت الخمر ، وشعر الشماخ فى وصف الحُمُر ، وشعر ذى الرمة فى صفة الأطلال والدمن ، ونعوت البرارى والقفار ، فإن كل واحد منهم وصاف لما يضاف إليه من أنواع الأمور ، فيقال : فلان أشعر فى بابه

ومذهبه من فلان فى طريقته التى يذهبها فى شعره ، وذلك بأن تتأمل نمط كلامه فى نوع ما يعنى به ويصفه ، وتنظرُ فيما يقع تحته من النعوت والأوصاف ، فإذا وجدت أحدهما أشد تقصيًا لها ، وأحسن تخلصًا إلى دقائق معانيها ، وأكثر إصابة فيها حكمت لقوله بالسبق ، وقضيت له بالتبريز على صاحبه ، ولم تبال باختلاف مقاصدهم وتباين الطرق بهم فيها .

قلت : وإذا أنت وقفت على شروط المعارضات ورسومها ، وتبينت مذاهبها ووجوهها علمت أن القوم لم يصنعوا فى معارضة القرآن شيئًا ، ولم يأتوا من أحكامها بشىء بتة . والأمر فى ذلك بيِّن واضح لايخفى على ذى مُسكة ذكى والحمد لله .

فيقال الآن لصاحب الفيل : يا فائل الرأى [١] ، أين ما شرطناه من حدود البلاغة فيما جئت به من الكلام ، وأين ما وصفناه من رسوم المعارضات فيما هذيت من جهلك وضلالتك ، افتتحت قولك بـ : « الفيل ما الفيل وما أدراك ما الفيل . . » فهولت وروعت ، وصعدت وصوبت ثم أخلفت ما وعدت وأخرجت ما ولَّدت حين انقطعت ، وعلى ذكر الذَّنَب والمشفر اقتصرت ، ولو كنت تعرف شيئًا من قوانين الكلام وأوضاع المنطق ورسومه لم تحرِّف القول عن جهته ، ولم تضعه فى غير موضعه . أما علمت يا عاجز أن مثل هذه الفاتحة إنما تُجعل مقدمة لأمر عظيم الشأن فائت الوصف متناهى الغاية فى معناه ، كقول الله تعالى : (الحاقَّة ، ما الحاقَّة وما أدراك ما الحاقَّة) و (القارعةُ ما القارعة وما أدراكَ ما القارعة) فذكر يوم القيامة وأتبعها من ذكر أوصافها وعظيم أهوالها ما لاق بالمقدمة التى أسلفها وصدَّر

---

(١) كذا فى (ب) وفى (ا) والطبعة الأولى إلى أى .

الخطبة بها فقال : ﴿ يوم يكونُ الناسُ كالفَراش المبثوث وتكونُ الجبالُ كالعِهن المنفوش . . . ﴾ إلى آخر السورة . وأنت علقت هذا القول على دابة يدركها البصر فى مدى[١] اللحظة ويحيط بمعانيها العلم فى اليسير من مدة الفكر ، ثم اقتصرت من عظيم ما فيه[٢] من العجب على ذكر المشفر والذنب . فما أُشَبِّهُ قولك هذا إلا بما أنشدنيه بعض شيوخنا لبعض نظرائك :

وإنى وإنى ثم إنى وإننى إذا انقطعت نعلى جعلت لها شسعا

أىّ صغير ما أتيت به فى عجز كلامك[٣] من عظيم ما أصميته فى صدره ويسير ما رضيت به فى آخره من كثير ما أنميته فى أوله ، وإذ قد دلك[٤] فيالةُ رأيك وسوءُ اختيارك على معارضة القرآن العظيم بذكر الفيل وأوصافه ، فهلا أتيت منها بما هو أشف قيلاً[٥] وأشفى وأجمع لخواص نعوته وأوفى فتذكر ما أُعطِيته هذه البهيمة العجماء من الذهن والفطنة التى بها تفهم عن سائسها ما يومئ به إليها من تدبيره ، وهلا تعجبت وعجبت من ذلك من حسن مواتاتها وطاعتها له إذا أغراها ، وقرب ارتداعها إذا زجرها ونهاها . وهلاقرنت إلى ذكر مشفرها ذكر نابيها اللذين بهما تصول ، وبسنانهما تطعن وتجرح . !![٦] وكيف أغفلت أمر أُذنيها العريضتين اللتين تلحفهما وجهها وتذب بتحريكهما البق والذباب عن[٧] صماخيها وعينيها ، وبهما تروّحُ على نواحى رأسها ،

---

(١) فى (ا) سر.

(٢) هكذا فى الأصل ، وقد نقلها (ا) فيها ، ولعله قصد بذلك عود الضمير على دابة . ويمكن على الأصل أن يعود الضمير على الفيل وهو محور الكلام .

(٣) فى الأصل « كلامه » والسياق يتطلب ما أثبتناه .

(٤) فى الأصل ذلك – وقرأها (ا) كما أثبتناه ، والسياق يقتضى لفظاً بمعنى حملك .

(٥) فى الأصل قليلا ، وقرأها (ا) غليلا .

(٦) سقطت هذه الكلمة فى (ا) .

(٧) هكذا فى الأصل وقد قرأها (ا) على ، والأصل أصح .

وكيف لم تفطن لموضع التدبير من قصر رقبتها واندماج عنقها ، فإنها لو طالت لم تُقِلّ رأسها ، ولأَوهنها ثقل حمله . فإذ قد منعت امتداد العنق فقد عوضت به انسدال المشفر ، لتتناول[1] به من وجه الأَرض حاجتها من القوت والعلف ، وتَدْلُوَ به شربها من الماء ، وتملأ كالسقَّاءِ فتنضح به أَعضاءَها إذا شاءت ، ثم قد منعت البروك بأَن لم تجعل لها مفاصل لم تقدر على النهوض ، إذ ليس لها عنق تتطاول بها[2] كالبعير الذى يهْنعُ بعنقه وينبعث ويثور ، فيما يشبه هذه الأُمور من نعوت خلقها وعجائب تركيبها . ويقال له أَرأَيت لو عارضك فى قولك سفيه مثلك بالبعوض الذى هو خصم فيلك وَجَنَفُه[3] فى مضادة الطباع ، وقد حكاه فى مناظر الخلقة من شخوص الفودين وانخراط الخدين . وانسدال المشفر والصول به . فقال : « البعوض وما البعوض وما أَدراك ما البعوض ، له مشفر عضوض ، فى الدماءِ يخوض ، فهو للفيل عروض ! » هل يكون سبيله فيما تعاطاه من السخف إلا سبيلك فيما أَتيته من الجهل ؟ . فإن قيل إن البعوض ليس بعروض الفيل لبعد ما بينهما من التفاوت فى الحجم والجثة وما بينهما[4] من الضعف والقوة قيل : مدار الحكم فى باب التشبيه والتمثيل على المعانى دون الأَعيان والأَجسام ، والبعوض حيوان من أَوجه كالفيل ، يكسب القوت ويتوقى المهالك ، ولذلك صار يتوارى نهارًا ويبرز ليلا ، وقد أَشبه خلقه الفيل برأسه وبخرطومه ، وبسائر ما ذكرناه من أَمره ، ثم قد زاد عليه بجناحين ، فصار موضع نقص الجسم والجثة مجبورًا بهما ، فهما متساويان فى المعانى التى تجمعهما غير مفترقين فيهما .

---

(١) فى (ا) تتناول .

(٢) فى « ب » (فتنوء) زيادة بعد بها .

(٣) غير واضحة فى الأصل .

(٤) فى (ت) وتباينهما .

وأما قول الآخر وما جاء به من نعت للحبلى ، فإن أول ما غلط به هذا الجاهل أنه وضع كلمة الانتقام فى موضع كلمة الإنعام حين قال : « ألم تر إلى [1] ربك كيف فعل بالحبلى » ، وإنما تستعمل هذه اللفظة فى العقوبات ونحوها كقوله : ﴿ ألم تر كيف فعل رَبُّكَ بأَصحاب الفيل ﴾ ، وكقوله سبحانه : ﴿ ما يفعلُ الله بعذابكم ﴾ وكقوله : ﴿ وَتبَيَّن لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأَمثال ﴾ وكقول القائل : فعل الله بفلان وفعل ، إذا دعا عليه ، وإنما وجهُ الكلام مما رامه من المعنى أن يقول : ألم تر إلى ربك كيف لطف بالحبلى ، وكيف أنعم عليها أو نحواً من هذا الكلام الذى يجرى مجرى الامتنان والإنعام . وأما قوله : أخرج منها نسمة تسعى من بين شراسيف وحشى ، فإنما تعاطى استراقًا من قول الله تعالى : ﴿ خُلِق [2] من ماء دافق يخرج من بين الصُّلْب والترائب ﴾ ، وهذا فى أول تارات الخلقة التى ذكرها الله سبحانه عز وجل ؛ ثم ذكر فى آية أخرى عدد انتقالاته فى الرحم من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى لحم ، وإنشاء [3] خلق بعد ذلك آخر ، وهو اجتماع الصورة ونفخ الروح فيها ، فدل بها على عظيم قدرته ولطيف حكمته وسعة رحمته ، فتبارك الله أحسن الخالقين ، وإنما تتصرف به هذه الأَحوال بعد الانتقال إلى الرحم ، وبين الرحم والشراسيف مسافة وحجب . قال أصحاب التشريح : الرحم موضوعة بين المثانة والمعى المستقيم ، فلم يدر هذا البائس ما يقول حين جعل الولد بعد الحبل خارجًا من بين الشراسيف والحشى تمثلاً بقوله جل وعز : ﴿ يخرج من بين الصُّلب والترائب ﴾ فغلط فى الوصف .

---

(١) هذه قراءة الأصل وقد جعلها (ا) : ألم تر كيف فعل ربك .

(٢) فى الأصل : « خلق الإنسان » وهو خطأ فى المخطوط وصحة الآية ما أثبتناه .

(٣) على قراءة الأصل، وحرفها (ا) إلى : وأنشىء خلقاً .

وأخطأ فى المعنى كما أبطل فى الدعوى .

وتلك سبيل مقالات المتكلفين وعاقبة دعاوى المبطلين .

قلت[١] فى إعجاز القرآن وجهًا[٢] آخر ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم ، وذلك صنيعه بالقلوب وتأثيره فى النفوس ، فإنك لا تسمع كلامًا غير القرآن منظومًا ولا منثورًا ، إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة فى حال ، ومن الروعة والمهابة فى أخرى ما يخلص منه إليه ، تستبشر به النفوس وتنشرح له الصدور ، حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة قد عراها الوجيب والقلق ، وتغشاها الخوف والفرق ، تقشعر منه الجلود ، وتنزعج له القلوب ، يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها ؛ فكم من عدو للرسول صلى الله عليه وسلم من رجال العرب وفتاكها أقبلوا يريدون اغتياله وقتله فسمعوا آيات من القرآن ، فلم يلبثوا حين وقعت فى مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول ، وأن يركنوا إلى مسالمته ، ويدخلوا فى دينه ، وصارت عداوتهم موالاة ، وكفرهم إيمانًا .

خرج عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعمد لقتله ، فسار إلى دار أخته وهى تقرأ سورة طه . فلما وقع فى سمعه لم يلبث أن آمن . وبعث الملأ من قريش عتبة بن ربيعة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليواقفوه[٣] على أمور أرسلوه بها ، فقرأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم آيات من حم السجدة ، فلما أقبل عتبة وأبصره الملأ من قريش

---

(١) يلخص السيوطى فى الإتقان ٢ ص ٢٠٥ رأى الخطابى هنا فى هذا الوجه من الإعجاز ويلخصه كذلك صاحب مفتاح السعادة ط حيدر آباد ٢ / ٣٦١ .

(٢) أثبتها (ا) وجه .

(٣) أثبتها (ا) « ليوافقه » وليس هذا مراداً هنا .

قالوا : أقبل أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به . ولما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن فى الموسم على النفر الذين حضروه من الأنصار آمنوا به وعادوا إلى المدينة فأظهروا الدين بها ، فلم يبق بيت من بيوت الأنصار إلا وفيه قرآن . وقد رُوى عن بعضهم أنه قال : فتحت الأمصار بالسيوف وفتحت المدينة بالقرآن .

ولما سمعته الجن لم تتمالك أن قالت : ﴿ إنَّا سَمعنا قُرآنًا عَجَبًا يَهْدِى إلى الرُّشْد فآمَنَّا به ﴾ (١) . ومصداق ما وصفناه فى أمر القرآن فى قوله تعالى : ﴿ لو أنزلْنا هذا القرآن على جَبَل لرأَيتَه خاشعًا متصدِّعًا مِن خشيةِ الله ﴾ (٢) ، وفى قوله : ﴿ الله نزَّلَ أَحْسَن الحديثِ كِتابًا متشابهًا مَثانِىَ تقْشَعِرُّ منه جلودُ الذى يَخْشوْنَ ربَّهم ثُمَّ تلينُ جلودهُم وَقلوبُهم إلى ذِكرِ الله ﴾ (٣) . وقال سبحانه : ﴿ أَوَلم يَكْفِهم أَنَّا أَنزلنا عليك الكِتابَ يُتلَى عليهم ﴾ (٤) . وقال سبحانه : ﴿ وَإذا تُلِيتْ عليهم آياتُه زادتْهم إيمانًا ﴾ (٥) . وقال سبحانه : ﴿ وإذا سَمِعوا ما أُنزل إلى الرَّسولِ تَرَى أَعْيُنهم تفيضُ مِن الدَّمع مِمَّا عَرَفُوا من الحقِّ ﴾ (٦) فى آى ذوات عدد منه ، وذلك لمن ألقى السمع وهو شهيد ، وهو من عظيم آياته ، ودلائل معجزاته .

والحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا ، قَيِّمًا ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا ، وصلى الله على محمد خاتم الأنبياءِ والمرسلين ، غيظ الكافرين ، وحتف الملحدين ، المبعوث بدين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون .

وحسبنا الله ونعم الوكيل

(١) [الجن ٧٢/١-٢] .
(٢) [الحشر ٥٩/٢١] .
(٣) [الزمر ٣٩/٢٣] .
(٤) [العنكبوت ٢٩/ ٥١] .
(٥) [الأنفال ٨/٢] .
(٦) [المائدة ٥/٨٣] .

تم الكتاب بحمد الله وعونه

وصلى الله على محمد وآله وسلم تسليماً والحمد لله رب العالمين

أَوائل شوَّال عام ستة وأَلف .

عرفنا الله خيره ووقانا شره

وجاءَ في آخر النسخة :

« بلغت المقابلة هنا من الأَصل المنتسخ منه »